قراءات فى أوراق شخصيات سياسية

محمد حسنين هيكل

السلام المستحيل مع إسرائيل

دراسة وتعليق

إيهاب كمال محمد

الحرية

للنشر والتوزيع

السلام المستحيل
مـــع إســـرائيـــل

اسم الكتاب	السلام المستحيل مع إسرائيل
اعداد	إيهاب كمال
الناشر	الحرية للنشر والتوزيع ٢ ميدان عرابى وسط البلد القاهرة ٢٦١٥٦٤٦ . ٠١٢٣٨٧٧٩٢١
رقم الايداع	٢٥٧٨ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى	7-85-23-204

المقدمـــة

فى ظل الإنتفاضات المباركة للشعب الفلسطينى.. ومع صراع إمتد لأكثر من خمسون عاماً من نكبة ١٩٤٨م.. ووسط خضم الصراع.. تغيم أحياناً الرؤية.. وتتداخل الأوراق نجد أنفسنا أحياناً وقد إستبدت بنا الحيرة.. سواء فى فهم جذور مايحدث الآن.. علاوة على معرفة الأساليب المناسبة للتعامل معه.

ووجدت نفسى كواحد من جيل جاء بعد حرب النصر ١٩٧٣م وقد علق فى ذهنى - ربما لتأثير التعليم والتلقيف - أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب - وأنه قد آن بالفعل زمن السلام.. وإذا بى أجد إسرائيل تتمادى فى عدوانها على شعب أعزل سواء بالقتل أو الطرد والتشريد.

وتابعت مع غيرى تلك الجولات المزعومة للسلام - من أوسلو إلى مدريد إلى كامب ديفيد إلى... الخ «ولاجديد تحت الشمس»..

ونظرت حولى أبحث عن شجرة من أشجار المعرفة أتفيأ ظلالها كى أستريح ولو قليلاً.. من حيرتى فرأيت كتابات الأستاذ/ محمد حسنين هيكل.. ورحت أتشرب ما فيها.. وأعانى مع كتبه مرارة الهزيمة فى ٦٧، وقبلها مراحل الكفاح للإستقلال مع ملفات السويس وغصت فى أوراقه مع الإنفجار و«ثلاثية المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» و«٧٣ السلام

والسياسة» و«مقالات يابانيه» و«٢٠٠٠ - ٢٠٠١» عام من الأزمات.. وغيرها من كتبه.. وأكتشفت أن الهزيمة لم تكن هزيمة والنصر لم يكن نصراً بالمعنى المفهوم..

وأكتشفت أن المفاوضات الإسرائيلية لعبة.. والصراع كله لعبة تدار من واشنطن.

وفى هذا الكتاب.. أحاول جمع شتات نفسى فى محاولة لإستجلاء الصوره كاملة وتابعت فيه - سباحة - كما قال أستاذ/ هيكل نفسه - فى الوثائق الإسرائيلية. مع مداخلات من كتاب صدر حديثا بعنوان «حدود التسوية واستراتيجية إسرائيل فى القرن ٢١» لأحد زعماء حزب العمل وهو يعد شهادة على مايدور فى عقل بعض الساسة الإسرائيليين وهو كتاب لـ «إفرايم سفه» وزير الصحة السابق فى إسرائيل - وقد ترجمه الأستاذ/ عبدالعال الباقورى - وقد صدر الكتاب فى وقته المناسب..

علاوة على «الموسوعة الصهيونية» للأستاذ/ عبدالوهاب المسيرى وآراء الاستاذ/ السيد يس.. وغيرهم..

وأتمنى من الله التوفيق فى إيصال معنى ترسخ فى ذهنى ووجدانى وهو «لاسلام مع إسرائيل» وهذا لا يعنى بالضرورة الحرب.. ولكن أيضاً لاسلام.. فإسرائيل دولة قامت على الصراع والإرهاب فارتبط وجودها ومن ثم إستمرارها بهذين العاملين..

والله الموفق

إيهاب كمال محمد

فى البداية كان الوعد

«سأعطى نسلك هذه الأرض من وادى العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات» (سفر التكوين: الاصحاح ١٥ المقطع ١٨)

«إذا كنا نملك التوراة، ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، فمن الواجب علينا أن نمتلك جميع الأراضى المنصوص عليها فى التوراة».

«الجنرال موشى ديان، صحيفة جيروز اليم بوست، ١٠ أغسطس ١٩٦٧)

ما أوردت آنفاً.. هما نقطتان دالّتان على مفهوم «الوعد بالأرض» أو «الأرض الموعودة».. ولابد لنا أن نقف قليلا مع هذه (الأسطورة الوعد، أو الوعد الأسطورة) والذى تحول (جزئياً) إلى واقع ملموس على الأرض «بقوة الإرداة» عندما التقى الوعد بالإرادة واندمجا فى «مفاعل» الفعل فتحققت الأسطورة بقوة الواقع المغزول بعناية وعبر سنين على «نول» التصميم والعمل الدءوب.

التفسير النبوى اليهودى للأسطورة (كما أورده/ روجيه جارودى) فى كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»

من محاضرة للحاخام «إلم برجر» الرئيس السابق للمجلس الأمريكى للبهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

لايمكن لأى إنسان أن يقبل الإدعاء بأن إنشاء إسرائيل الحالية كان تحقيقاً للنبوءة، وبأن الله قد صدّق سلفاً وبشكل تلقائى على كل الأعمال التى قام بها الإسرائيليون لإنشاء دولتهم والحفاظ على إستمرارها.

فقد حطمت دولة إسرائيل السياسية الحالية، أو على الأقل شوّهت المغزى الروحى لإسرائيل.

وسأطرح للبحث هنا عنصرين من العناصر الأساسية للتراث النبوى؛

أ) الأول: أنه عندما طرح الأنبياء فكرة إستعادة صهيون، لم تكن للأرض فى حدّ ذاتها صفة القداسة. فقد كان المعيار المطلق والحاسم فى المفهوم النبوى لكفرة الخلاص هو إستعادة العهد مع الرب، فى وقت كان الملك وشعبه قد نقضوا هذا العهد.

ويوضح النبى ميخا هذا الأمر بكل جلاء: «إستمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة شعب إسرائيل الذين يكرهون العدل ويحرفون الحق. الذين يبنون صهيون بالدم وأورشليم بالظلم. إذ يحكم رؤساؤها بالرشوة، وكهنتها يعلّمون بالأجرة، ويتعاطى أنبياؤها العرافة لقاء المال. ومع ذلك يدّعون الإتكال على الله قائلين: «أليس الرب فى وسطنا؟ لذلك لن يصيبنا مكروه».. لهذا من جرّ أعمالكم ستتحدث صهيون كالحقل وتصبح أورشليم كومة من الخرائب وجبل الهيكل مرتفعاً تنمو عليه أشجار الغاب». (المصدر: سفر ميخا ٣: ٩ - ١٢)

«لن تكون صهيون مقدمة إذن إلا إذا سادت فيها شريعة الله ولايعنى ذلك أن أى قانون يُسن فى أورشليم قانون مقدس»

«لم يكن «إيجل عامير» قاتل إسحاق رابين، شخصاً جانحاً أو مخبولاً، ولكنه نتاجُ خالص للتربية الصهيونية، فهو ابن حاخام، وكان طالباً متفوقاً فى

الجامعة اللاهوتية فى «بار إيلان» بالقرب من تل أبيب، وتربى على تعاليم المدارس التلمودية.. ومن الكتب التى تضمها مكتبته ميرة باروخ جولد شتاين (الذى اقدم هو الآخر على قتل ٢٧ عربياً وهم يؤدون صلاة الفجر فى الحرم الإبراهيمى فى الخليل). (المصدر: صحيفة لوموند، ٨ نوفمبر ١٩٩٥)

ويُعد إغتيال رئيس الوزراء «رابين» (شأنه شأن أعمال القتل التى نفذها جولد شتاين) جزءاً لا يتجزأ من النهج الأسطورى، الخرافى الضيق الأفق الذى يتبناه المتزمتون الصهاينه. فالأمر بالقتل. على حدّ تعبير «إيجال عامير» «جاء من الرب»

ومن منطلق هذا المنظور. فقد نفذ «إيجال عامير» حكم الإعدام فى «رابين» لأنه فرّط «فى جزء من الأرض المقدسة» وذلك بالسماح للفلسطينيين بإقامة حكم ذاتى فى (غزة وأريحا)

ويقول «روجيه جارودى» فى المصدر السابق الإشارة إليه.

«لقد كان «إسحق رابين»، ومن قبله آلاف الفلسطينين، ضحية لأسطورة خرافة «الأرض الموعودة» التى تمثل إحدى الذرائع القديمة للإستعمار الدموى.

وتبرهن عملية إغتيال رابين على يد أحد المتعصبين مرة أخرى على أن تحقيق سلام حقيقى بين دولة إسرائيلية، تعيش آمنة ضمن الحدود التى نصّ عليها قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧م، ودولة فلسطينية تنعم بإستقلال كامل، يقتضى إزالة الإستعمار الحالى بشكل كامل، أى بعبارة أخرى إزالة جميع المتسوطنات التى تشكل، داخل الدولة الفلسطينية المقبلة معيْناً لاينضب للإستفزاز ولإندلاع حروب جديدة مستقبلاً».

وهكذا نرى أنه بوجود (أسطورة.. الأرض الموعودة) كمادة «خام» يُسهل تشكيلها بعد صهرها «فى منظومة أساطير أخرى كأسطورة.. المحرقه

النازية» والتى زعموا أن ستة ملايين يهودى أحرقوا فيها أيام الزعيم النازى «هتلر» وهكذا تتحول الأساطير/ الخرافات. إلى نسق متكامل وتصير «وصفة جاهزة» يتم حقنها فى وريد نظام صهيونى» أثبتت الأيام بما حوته من تجارب إلى أنه «أكثر وأشد نازيّة» من نظام هتلر، وأشد فاشية من فاشية «موسولينى».

كيف تتفوق إسرائيل على العرب أجمعين؟!!

«هذه هى شهادة واحد منهم على مايدور فى كواليس حكمهم»

- ضمانات لابد منهما. التفوق العسكرى والتقنى و«الأستخبارتى» وحدود يمكن الدفاع عنه.
- سوريا خصم عسكرى يهدد إسرائيل.. ولابد من شلّ قدرتها على القيام بهجوم مفاجئ.
- تفوق إسرائيل العسكرى قاد العرب إلى المفاوضات وهو الذى يضمن إستقرار السلام!!
- المثقفون والكتاب والمهنيون فى مصر يتمسكون بالتضامن العربى ولم يسلموا «بشرعية» وجود إسرائيل.

- مكانة مصر فى المنطقة بعد سنة ۲۰۰۰ لن تتحقق إلا عن طريق مشاركة فعالة مع إسرائيل!
- على إسرائيل بذل كافة الجهود السياسية لمنع رفع العقوبات عن العراق!
- تحييد مصر.. إضعاف سوريا.. تفتيت العراق

عرضنا فيما سبق تعريفاً بمؤلف الكتاب، الجنرال الدكتور إفرايم سنيه، القيادى السياسى الإسرائيلى من حزب العمل، وكذلك رؤيته لإسرائيل وللعالم الذى ستعيش فيه بعد سنة ۲۰۰۰، حيث نظر إليها كقوة عظمى إقليمية، كما نظر إلى «يهود العالم» الذين يسميهم «الشعب اليهودى» على أنهم القوة العظمى الوحيدة التى لن تدير ظهرها أبداً لإسرائيل، وكيف يجب أن تتحول إسرائيل إلى الوطن الثانى لملايين اليهود فى «المنافى».. ثم تحدث عن «العبقرية اليهودية» ودورها وزنها العالمى، خاصة فى الولايات المتحدة التى أصبحت القوة العظمى الوحيدة، وانتقل بالحديث إلى العلاقات مع أمريكا وأوروبا وروسيا وإيران.. والمدى الإستراتيجى لإسرائيل الذى يجعلها فى حاجة إلى أجهزة جمع معلومات - أى أجهزة إستخبارات.. لا تحدها حدود.

وفى هذا الفصل يتحدث «سنيه» عن علاقات إسرائيل مع الدول العربية، أو من يسميهم «الجيران» أى مع مصر التى يدعو إلى تحييدها، أىْ إبعاد دورها عن الصراع العربى - الصهيونى، وعن سوريا التى يريد إضعافها، وعن لبنان الذى يريد التحكم فيه، وعن العراق الذى يريد تفتيته.. ونقرأ هذا تفصيلاً..»

ولكن إسرائيل - فى البداية والنهاية - كيان «صغير، بل ضئيل، محدد المساحة والسكان والإمكانيات. ومهما يكن ماحققته، فإن القزم لا يستطيع أن يصير عملاقاً، ومهما كان تقدمها العلمى والتكنولوجى فإنه عاجز عن أن

يجعل «الأرنب» فيلاً، سواء بالهندسة الوراثية أو غير الوراثية. إن شيئاً من هذا التفكير يطوف أو يلوح فى ذهن «إفرايم سنيه» وهو ينظر إلى إسرائيل فى عالم مابعد عام ٢٠٠٠، كيف ستكون..؟ إلى أين تتجه؟ بكل ما تعانيه من قصور فى المساحة والسكان مما ينعكس على نسبة القوى العسكرية من حيث الكم، بين إسرائيل وجيرانها، «أى نحن العرب»، ويرى أن القدرة الإقتصادية الإسرائيلية تشكل عنصر توازن أمام النقص الكمى فى السكان والمساحة.

ويقول على عادة الإقتصاديين والإحصائيين حين يتعاملون مع الأرقام الصماء منزوعة من بيئتها وإطارها العام. إن الناتج القومى الشامل لإسرائيل يتساوى مقداره مع مثيله فى كل من مصر وسوريا والأردن مجتمعة على الرغم من أن سكان الدول الثلاث يفوقون مكان إسرائيل أربع عشرة مرة.

هل هذا يكفى لضمان تفوق إسرائيل على «جيرانها العرب»؟

يستدرك «سنيه» معترفاً بأن هذا لايكفى. صحيح إن التفوق الإقتصادى الكبير يمثل أهمية كبيرة وبعيدة المدى، بما يوفره من إمكانات تعزيز وتمتين مكانتها الإقليمية والعالمية، ولكنه لا يمكن أن يلغى النقص الكمى الإسرائيلى والإضرار التى يلحقها بها «فى حالة النزاع مع محيطها.

إذن ما العمل؟

لايتردد القيادى الإسرائيلى العمالى «المعتدل» لحظة واحدة فى أن يقول حرفيا مايلى:

هناك عاملان يمكنهما إذا ما تضافرا مما تعديل هذا النقص، وإعطاء إسرائيل حالة التوازن الإستراتيجى مع محيطها.

الأول: هو التفوق العسكرى والتقنى والإستخباراتى.

والثانى: حدود قابلة للدفاع عنها

ويقول «سنيه» إن الغاية من التفوق العسكرى هى إكساب الجيش الإسرائيلى القدرة على صد أى إجراء هجومى يقوم به إئتلاف من جيوش عربية وإبادة أهم قواته المحارية، وتعبير «أى إئتلاف» يمكن تفسيره بالمفهوم الخطير والواسع النطاق.

ولقد تعلمنا من حرب أكتوبر ١٩٧٣م أن الأخطار يمكن تقديرها بحسب القدرة الموضوعيه، وليس بحسب وضوح الهدف.

ويحدد التفوق العسكرى جانبين، أحدهما كمّى والآخر كيفى..

الوجه الأول: «يجب أن يكون ترتيب حجم القوات البرية والأفواج على نحو يمكن من تحقيق إمتداد وإنتشار دفاعى متزامن على جميع القطاعات.

الوجه الثانى: يجب وجود قوة جوية ذات حجم كاف تتوفر له مرونة فى القيام بمهامها بين قطاع وآخر، وتجعلها قادرة أيضاً على حماية القوة النظامية فى الأوقات الحرجة إنتظاراً للإنتهاء من تجنيد الإحتياطى وانتقاله إلى الجبهة.

أما التفوق النوعى أو التقنى. فهو يعنى إمتلاك إسرائيل القدرة على تطوير وإنتاج انظمة التسليح والدعم التى تمنح إسرائيل أفضليات إضافية فى ميدان المعركة، كما يعنى إمتلاكها القدرة على تحقيق المفاجأة، بواسطة وسائل قتالية حديثة ودقيقة وقادرة على البقاء أطول وقت ممكن يضاف إلى هذا التفوق فى مجال الإستخبارات والقدرة على جمع المعلومات «بحيث لاتحدها آية حدود».

خطـوط عامـة

هذه هى خطوط عامة فى الإستراتيجية الإسرائيلية وردت فى كتاب «سنيه»..

نستوضح منها بعض ملامح تفكير «العظم الصهيونى»

مع دخول مصر سنة ١٩٤٨ فى حرب فلسطين وإشتراك جيشها فى المعارك التى دارت على أرضها.. راح «بن جوريون» يفكر جدياً فى سياسة يتعامل بها - حسب قوله - مع «جارنا الذى فَرَضه التاريخ علينا منذ أقدم العصور - عند الجنوب»!..

وهكذا كان بن جوريون (وحزبه) يصلون الماضى «التوراتى» البائر والذى أعيد بعثه - بل وإختراعه فى الحاضر والمستقبل - بعد أكثر من ثلاثين قرناً!

أى أن «مصر» مازالت هى بالضبط «مصرايم» التى خرج منها اليهود هرباً من «الفرعون» وكل ماحدث عبر القرون هو أن الفرعون الآن لم يعد «رمسيس الثانى» وإنما «فاروق الأول».

وكان ذلك خلطاً خطيراً بمزج الأساطير بالتاريخ لكن «بن جوريون» مالبث أن حَوَّل هذا الخلط إلى إستراتيجية كاملة!

وربما أن أدق وثيقة فى توصيف إستراتيجية إسرائيل إزاء مصر هى الوقائع الواردة فى محضر إجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسته يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٤٩م

«وإذن فإن السؤال الأهم الذى يواجه إسرائيل الآن وعلينا الإجابة عليه هو «ماذا نفعل إزاء مصر؟ فى الوقت الحالى لاخطر. ولكن مع وجود إمكانيات لدولة حقيقية هناك فإن علينا أن نتحسب لأن إسرائيل دولة صغيرة ومحاطة بالأعداء من كل جانب، وإذا خرجت مصر من وراء حدودها وأقامت تحالفات فى يوم من الأيام، وقد رأينا نموذجاً من ذلك فى حربهم الأخيرة معنا لمنع إستقلال الدولة، فإن ذلك سوف يكون خطراً كبيراً علينا أن نكون مستعدين ليومه قبل أن يجئ. نمنع مجيئ هذا اليوم قدر ما نستطيع ونكون متأهبين لهذا اليوم إذا جاء»

وكانت مقترحات «بن جوريون» فى عرضه العام لإستراتيجية إسرائيل إذا جاء «ذلك اليوم» كما يلى:

١ - يلزم أن تظل مصر وراء حدودها. والإنجليز والأمريكان وأوربا لابد أن يعرفوا أن ذلك فى صالحهم من الناحية الإستراتيجية ومن ناحية تأمين البترول.

٢ - يجب منع مصر من إقامة أى تحالفات مع بقية العالم العربى قفزاً فوق إسرائيل خصوصاً مع سوريا بالذات ثم السعودية والعراق. وهذه مسألة مُهمَّة.

٣ - من الضرورى توسيع العازل الصحراوى بين مصر وإسرائيل، وهذا العازل لابد له أن يشمل سيناء المصرية وأيضاً منطقة النقب (الصحراوية جنوب فلسطين).

٤ عندما تقبع مصر وراء حدودها وتترك إسرائيل وشأنها فإن إسرائيل يتحتم

عليها أن تعطى نفسها كل المزايا المتوفرة إستراتيجياً لمصر (والتى دفعت «نابليون» لوصف مصر بأنها «أهم بلد فى الدنيا») وهى:

- الموقع المتوسط بين القارات الثلاثة (أوروبا وإفريقيا وآسيا).
- البرزخ الواصل من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر بحيث يمكن أن تُحفر فيه قناة تضاهى قناة السويس، أو تمتد عليه خطوط سكك حديدية أو خطوط أنابيب لنقل البترول (وكان تحقيق ذلك الهدف هو الدافع الأول وراء مسارعة القوات الإسرائيلية حتى بعد عقد إتفاقية الهدنة إلى إحتلال منطقة «أم الرشراش» وهى موضع ميناء «إيلات» اليوم).

ويواصل «بن جوريون» عَدّ شروطه فيضيف:

٥ - إن إسرائيل عليها أن تحاول العثور على صداقات خاصة، أو حتى علاقة مصلحة متبادلة بينها وبين عدد من العناصر المكّونة لـ «موازييك» الإنسانى فى الشرق الأوسط.

ويتساءل «بن جوريون»: هل نستطيع إقامة علاقات مع الأكراد فى العراق وإيران وتركيا؟ - هل نستطيع إقامة علاقات منظمة مع «الموارنة» فى لبنان؟ - لا أتحدث عن علاقات مع أفراد هنا وهناك، ولكن مع كُتَل دائمة وحاضرة باستمرار؟ - هل نستطيع مع الدروز خصوصاً وهناك قسمٌ كبير منهم تحت سُلطة الدولة الآن؟ - هل نستطيع مع العَلَويين فى سوريا؟ - فكرت أيضاً فى أقباط مصر لكنهم حالة ميئوس منها لأن حرصهم على حياتهم المشتركة مع المسلمين فى مصر طغى عندهم على أى إعتبار آخر»

«ويتحدث وزير الصحة الإسرائيلى السابق بقدر من التفاصيل عن علاقات إسرائيل مع تركيا، والأكراد، واذربيجان، وتركمانستان، وأرمينيا، وأثيوبيا، وإريتريا. ويصف تركيا بأنها «الحليف الطبيعى لإسرائيل، ولنا معها مصالح مشتركة. فما هو سيئ لها سيئ لنا أيضاً، والعكس صحيح، وذلك

تدعو الضرورة إلى تمتين التحالف معها فى جميع المجالات العلمية: الإقتصادية والسياحية والصحية، وبالطبع مجالات الدفاع والأمن». من المعلوم الآن أنه بات هناك معاهدات مشتركة بين إسرائيل وتركيا فى مجالات التسليح والأمن، وأيضاً فى المجالات التى أوردها «إفرايم سنيه». وبعبارة مركزة جداً يقول سنيه إن «تمتين» العلاقات معها (أى مع تركيا) سيشكل أهم الأهداف السياسية فى سنوات ما بعد «الألفين».

ثم ينتقل الحديث إلى مشكلة الأكراد، ويصفها بأنها «مشكلة ليس من المستحيل حلها»، ويتساءل هل هناك مصلحة وإهتمام لإسرائيل فى حل المشكلة الكردية؟ ويقول إن الردّ الإيجابى على هذا التساؤل وضح وتحدد خلال الستينات والسبعينات الماضية، فقد ساعد ضباط إسرائيليون أنه من خلال موقفنا الجرىء هذا بإمكاننا خلق حليف فعّال لنا فى الأيام القادمة.. ولا شك عندى أن الشرق الأوسط بعد عام ٢٠٠٠، سيشهد وجود كيان كردى مستقل أو ذى حكم ذاتى، وإذا أخذت فى الإعتبار العلاقات الماضية بين يهود كردستان وجيرانهم والدعم الإسرائيلى فى الماضى، يمكن الإفتراض بأن كياناً كردياً كهذا سيكون صديقاً لإسرائيل. ولذلك يجب علينا أن نساعد الأكراد إذا طلب منا ذلك (٤). للإسراع فى إقامة كيان كردى يقول سنيه هذا دون أن تطرف له عين، فهو لا يتحدث عن الأكراد إلا بوصفهم مشكلة للعراق وإيران، أما تركيا الصديق الصدوق لإسرائيل فلا شىء بشأن الأكراد فيها، بل يضع أو يقدم هنا تصورات غريبة ومريبة، فهو يدعى أن «الإرتباط أو الصلة الوحيدة التى يمكن لكردستان أن تقيمها مع الغرب لا يمكن إلا أن تمر عبر تركيا. إن أى وجود ملموس للسيادة الكردية - مهما كان شكلها - فى الجوار التركى، يمكن أن تهدىء من التوتر القومى الكردى فى تركيا، وتحصره فى مطالب ثقافية وتربوية كردية داخل تركيا. أمام إحتمال أن تشير إمكانية وجود حكم ذاتى أو سيادة كردية فى شمال العراق أهدافاً توسعية بإتجاه

تركيا، فهو ليس سوى إحتمال ضعيف جداً أمام إحتمال أن يؤدى ذلك إلى تهدئة التوتر الداخلى فى تركيا.

إن وجود سياسة تركية إيجابية وأكثر فاعلية باتجاه إنجاز الحقوق الكردية فى شمال العراق سيؤدى عملياً إلى المساهمة فى تحسين مكانة تركيا فى الخارج، لكن إمتناع تركيا عن مساعدة الأكراد فى شمال العراق سيؤدى إلى زيادة التأثير الإيرانى عليهم، فالإيرانيون يحاولون اليوم تأسيس نفوذ لهم داخل كردستان.»

إن هذا يبين كيف تلاعبت إسرائيل وكيف تريد أن تتلاعب بـ «الورقة الكردية» إنها تريد أن توقفها على رأسها، بدلاً من أن تنتصب على قدميها، ومن الواضح أن سنيه يتجاهل عامداً متعمداً أن العراق كانه قد بادر. وللأسف لم يكمل المبادرة. بالإعتراف بالحكم الذاتى للأكراد واعترف بحقوقهم القومية.

ولكن إسرائيل، إسرائيل حزب العمل، كما يعبر عنها أحد زعمائه، تريد تحويل شمال العراق إلى دولة كردية مستقلة ويزعم سنيه أن «تحقيق ذلك لا يضمن العدل فقط لآخر شعب بالمنطقة لا يملك أرضاً خاصة به، بل يحقق أيضاً توازناً جغرافيا - سياسياً أفضل لشمال الشرق الأوسط. وهذا يبين لنا - أن إسرائيل لا تخفى نواياها ولا سعيها إلى تقسيم العراق...»

ونعود مع الأستاذ / محمد حسنين هيكل فى قراءته للوثائق الإسرائيلية.. وبقية شروط «بن جوريون».

٦ - ثم يطرح «بن جوريون» قضية الجاليات اليهودية فى العالم العربى خصوصاً فى مصر متسائلاً «هل حان وقت تجنيدهم لصالح الدولة أن الوقت مازال مبكراً للمحاولة؟ . هُم هناك حيث هُم على أى حال رصيد إحتياطى فيه عناصر مستعدة وراغبة أن تستجيب لما تطلبه الدولة منهم».

٧ ـ أن تحقق إسرائيل لنفسها قوة ردع تواجه بها «الكم البشرى الإنسانى الضخم» فى مصر إذا جاء «ذلك اليوم».

إستفاض «بن جوريون» خلال الجلسة طويلاً فى كلامه عن قوة الردع الإسرائيلى والشروط المطلوبة لها:

ـ جيش أقوى من كل الجيوش العربية مجتمعة «لأنهم قد يحاصروننا».

ـ وقادر على نقل المعركة من أول يوم إلى أرض العدو «لأن رقعة أرضنا ضيقة».

ـ ومُهيأ لحسم أى معركة فى عدة أيام «لأنه جيش شعبى» وهو مُطالب فور إنتهاء القتال أن يعود إلى مستعمراته ومصانعه ومكاتبه».

ـ يُدّعم هذا الجيش أن إسرائيل يجب أن تكون لها صداقة إستراتيجية مع قوة عظمى «لها تسندها سياسياً فقط وإنما لها مخازنها للسلاح والذخيرة عند الحاجة وإلى الحدّ الضرورى».

ويشير محضر جلسة الوزراء الإسرائيلى يوم ٢٩ مايو ١٩٤٩ أن «دافيد بن جوريون» خلص من ذلك إلى القول «وكأنه يلقى نبوءة!» بما نصه.

«محظور على دولة إسرائيل أن تقامر بأمنها، ولهذا فإن إستباق أى تهديد محتمل بضربة وقائية هو عمل له مبرراته السياسية والإخلاقية حتى وإن ثبت فيما بعد عدم صحته»!!.

وهكذا نرى كيف تُحوّل الإستراتيجية الإسرائيلية على سياسة هى بالأساس «عدوانية» ترتكز على هواجس أمنية.. وهو ما يؤكده كتاب «إفايم سنيه» بعد ما يقرب ٥٥ عاماً من إجتماع «بن جوريون» كما أورده الأستاذ / هيكل من خلال قراءته وتحليله للوثائق الإسرائيلية «المُفرج عنها أو بالأدق عن بعضها».

المجال الأمنى لإسرائيل
بين نتنياهو.. وشارون.. وإفرايم سنيه

فى عرضه الشيق والهام يعقِد . أ / عبد العال الباقورى . مقارنة دالّة بين رؤية نتنياهو فى كتابه «مكان تحت الشمس» و رؤية شارون ورؤية «إفرايم سنيه» من حزب العمل والذى يُعدّ الحزب الأكثر إعتدالاً فى إسرائيل..

ونورد هذه الرؤى بإختلاف مصادرها فى محاولة لإستقراء المزيد من الإستراتيچية الإسرائيلية وفى واحدة من أهم جزئيات هذه الإستراتيچية.

يقول نتنياهو فى كتابه

«نحن نقف الآن على أعتاب فترة تاريخية تنطوى على آمال وأخطار معاً، فالنظام العالمى القديم إنهار فى حين مايزال النظام العالمى الجديد بعيداً عن القدرة على الوقوف على قدميه، والضمان الوحيد لبقاء دولة صغيرة فى فترات عاصفة كهذه هو قدرتها على التحرك بصورة صحيحة بين التيارت المتلاطمة لهذا الواقع وأن تستحضر من داخلها الإصدار المطلوب للنضال من أجل حقها فى تكريس وجودها فى وطنها العتيق وبناء مستقبلها من جديد عليه.

ثم يضيف زعيم الليكود ورئيس وزراء إسرائيل الحال:

«إن أحداً لا يعلم ما ينتظر «الشعب اليهودى» فى القرن الواحد والعشرين. ولكن علينا بذل كل جهد ممكن لكى نضمن أن يكون مصيره أفضل من مصيره فى النصف الأول من القرن العشرين «قرن الكارثة» - لعله يقصد محرقة هتلر - فمن جهة ثباتنا من جديد على أرض إسرائيل، وإستئناف السيادة اليهودية على أساس القيم الدائمة لشعب إسرائيل.. كل هذه الأمور تعتبر مؤشرات لثورة كبرى فى وضعنا القومى، التى بمقدورها أيضاً، أن تؤدى إلى قبولنا لدى معظم جيراننا كحقيقة قائمة فى المنطقة. وضمان مستقبل «الشعب اليهودى كله» (يقول الأستاذ / عبد العال الباقورى «المترجم» - وضعت مصطلح «الشعب اليهودى» بين علامتى تنصيص لأنه تعبير غير دقيق علميا هناك يهود ويهودية، ولكن مسألة الشعب فيها نظر. وعلينا أن نتوقف عند إستخدام الكلمات والمصطلحات التى يرددها الإسرائيليون، ثم تتسرب إلينا).

وإذا كانت هذه الكلمات قد وردت فى كتاب نتنياهو، فإن «سنيه» حرص فى الصفحة الأولى من كتابه على تأكيد أن هدفه من هذا الكتاب هو التعبير عن وجهة نظره «فى أقرب الموضوعات إلى قلبى وأهمها، وهو مستقبل دولة إسرائيل» فالعالم ومعه المنطقة التى توجد فيها دولة إسرائيل أخذ يتغير فكيف نضمن وجود دولة إسرائيل فى القرن القادم داخل عالم متغير؟.. كيف نخلق فى عهد السلام (!!!) توازناً إستراتيجياً جديداً بين إسرائيل وجيرانها؟ ما هى الأسس الحيوية لنا فى التسويات مع الحوار العربى فى المستقبل القريب والبعيد؟ هذه هى الإسئلة الأساسية التى تستوجب الإجابة وهى الأسئلة نفسها التى تدور فى عقل من يعتبر أن مصير الدولة عزيز عليه، وها أنا أصوغ أجابتى بالإستناد إلى نظريتى الداعية إلى ضرورة ضمان الوجود اليهودى «مهما كلف ذلك من ثمن»».

ويمضى «سنيه» على هذا المنوال فى حديثه عن تكريس عمره «للشعب اليهودى» ثم يضيف:

«وسأفترض إفتراضاً أساسياً خطيراً هو أنه على الرغم من وجود إتفاقيات السلام. فإن الشرق الأوسط الذى نعيش فيه غير مستقر أبداً، ومن الممكن أن تثير فيه «على الدوام» أطراف متطرفة وراديكالية «ثورية» أزمات تهدد أمن إسرائيل ولذلك ينبغى أن يقوم أمن إسرائيل - قبل كل شىء - على تفوقها العسكرى، وعلى وجود حدود يمكن الدفاع عنها - لكن هذا كله غير كافٍ أيضاً، علينا إقامة علاقات ودية قوية مع معظم الدول الموجوده فى مدانا الإستراتيجى، ومع كافة القوى العالمية.

ويعلق المترجم قائلاً:

«قبل أن نتحدث عما يسميه سنيه «المدى الإستراتيجى الإسرائيلى» يجب أن نلتفت إلى حديثه عن ضمانات أمن إسرائيل وحديثه عن «التفوق العسكرى» و«الحدود التى يمكن الدفاع عنها»، إنها الضمانات نفسها التى تحدث عنها الإسرائيليون بعد عدوان ١٩٦٧، وهى الضمانات التى اهتزت كثيراً فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، فقد أصبح مؤكداً فى عصر الصواريخ أن الحدود التى يمكن الدفاع عنها هى ضمانة واهية، ولا قيمة جغرافية أو عسكرية لها - ولكن الحديث الإسرائيلى يعنى هنا ستاراً للتوسع. ورفضاً للعودة إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ وغطاء لمطالب إقليمية محددة ومعروفة فى الجولان وفى الضفة الغربية وفى القدس.

وهكذا نتأكد أن الإستراتيجية العسكرية والأمنية وحتى الإستراتيجيه العليا للدولة نفسها والتى وضعها الرواد الأوائل مثل «بن جوريون».. مبنية على أساس هواجس الخوف والسيطرة. فماذا عن رؤية أيرييل شارون فى هذه الجزئية ذاتها «جزئية المدى الإستراتيجى لإسرائيل».

«.. فى ديسمبر ١٩٨١ كان مقرراً أن يلقى «شارون» وزير الدفاع فى حكومة مناحم بيجين محاضرة عن «مشكلات إسرائيل الإستراتيجية فى

الثمـانينات» وذلك فى إفتتاح ندوة «معهد الدراسات الإستراتيجية فى تل أبيب» ولكنه لم يلق المحاضرة بسبب حضوره مناقشة الكنيست لقانون ضم الجولان. وفى ١٨ ديسمبر فى ذلك العام وتحت عنوان «الخطاب الذى لم يلق» قدمت صحيفة «معاريف» أهم محتويات هذا الخطاب الذى قال فيه شارون «إن مصالح أمن إسرائيل فى الثمانينيات تتأثر» بتطورات وأحداث تتجاوز منطقة المواجهة المباشرة التى ركزت عليها إسرائيل إنتباهها فى الماضى.

وأضاف وزير الدفاع الليكودى أن «إهتمامات إسرائيل الإستراتيجية» ينبغى إلى ما وراء الدائرة الأولى التقليدية لدول المواجهة المحيطة بها، وهذا الإتساع يجب أنه يمتد ليشمل مجالين جغرافيين آخرين لهما أهمية أمنية حسب تعبيره، وحدد هذين المجالين كما يلى.

المجال الأول: يتعلق بما أسماه الدول العربية الخارجية وقصد بذلك الدول الواقعة وراء دول المواجهة، والتى تضيف مقدرتها العسكرية المتزايدة بعداً أكثر خطورة إلى النظير المباشر الماثل أمام إسرائيل. سواء بواسطة إرسال قوات مقاتلة إلى منطقة المجابهة. أو بواسطة عمليات جوية وبحرية مباشرة، تستطيع تنفيذها ضد خطوط المواصلات الجوية والبحرية لإسرائيل.

المجال الثانى: يشمل تلك الدول الخارجية التى قد تؤثر مكانتها وتوجهاتها السياسية - الإستراتيجية بمقدار خطر على أمن إسرائيل القومى، وقال شارون إنه يقصد بذلك «ما وراء الدول العربية فى الشرق الأوسط على ساحل البحر الأبيض المتوسط. والبحر الأحمر، ينبغى أن نوسع مجال الإهتمام الإستراتيجى والأمنى لإسرائيل بحيث يشمل فى الثمانينيات دولاً مثل تركيا، إيران، وباكستان، ومناطق، مثل الخليج العربى وأفريقيا، وبشكل خاص دول إفريقيا الشمالية والوسطى».

إختلاف طرق الصيد

كتب الأستاذ / هيكل فى كتابه عام من الأزمات قائلاً:

فى إختلاف الرؤية الإستراتيجية الإسرائيلية لطريقة التعامل مع دول الجوار وأسباب هذا الإختلاف كتب الأستاذ / محمد حسنين هيكل تحت عنوان جانبى هو «توقيت».

«لا تكشف الوثائق الإسرائيلية (فى حدود ما اطلعت عليه) - عن كثير جديد يُضاف إلى ما كان معروفاً لغيرى ولى عن قرار إسرائيل بالحرب سنة ١٩٦٧.

والمفاجأة الكبيرة، وربما الوحيدة، أنه لم يكن فى نيّة إسرائيل لأى عمليات تفكر فيها تلك السنة أن تدخل إلى الضفة الغربية والقدس (رغم كل هذا التعصب فى شأنها الآن)، ولا أن تُوجّه ضربة إلى سوريا، ولا أن تحتل هضبة الجولان (رغم تَمَسّك إسرائيل بها اليوم أرضاً وموقعاً ومورد ماء).

والسبب الذى يتبدّى من الأوراق والملفات هو نفسه ما وصفه الجنرال «أهارون ياريف» عن الفارق بين سياسة «الصيد بالشباك» فى الشام (سوريا - لبنان - الأردن) - وبين سياسة «الصيد بالرُمح المقذوف» Haproon فى سيناء - والداعى إلى إختلاف أساليب الصيد، أو أساليب العمل أن إسرائيل فى

منطقة الشام كانت تقصد إلى أن «تنتشر» أو «تأخذ» أو «تستولى» دون أن تزرع عوامل ثأر باقية فى منطقة تريد أن تعيش وسطها بغير عوائق مادية أو نفسية، ولذلك فهى تطلب أن تكون حياتها فيها حاضراً ومُستقبلاً حياة محدودة المخاطر، مقبولة التكاليف، وخصوصاً أنها. كما تتصور - لا تقابل فى هذه المنطقة دُوَلاً يمكن فى يوم من الأيام أن تمثل خطراً قاتلاً لها. والعكس من ذلك الصيد بـ «الرُمح المقذوف» مع مصر لأن القصد فى هذه الحالة هو الإصابة الشديدة قتلاً أو عاهةً مُستديمة حتى يمتنع طرف بقدر على التهديد فى يوم من الأيام - عن أن يفكر أو يحلم بالخروج من سيناء إلى المشرق العربى فى آسيا (بالتحديد إلى الشام الكبير أو الهلال الخصيب شاملاً العراق)

كان هناك ما هو أكثر من ذلك بالنسبة لتفكير إسرائيل فى خطوط حركتها الإستراتيجية فى منطقة الشام، بما فى ذلك التفرقة ما بين دواعى الصيد بالشبَكة فيها، مقابل إستعمال الرُمْح المقذوف والقاتل ضدَّ مصر.

كانت هذه الخطوط الإستراتيجية للحركة الإسرائيلية شديدة الوضوح خصوصاً فى القدر المتاح من أوراق «بن جوريون» الخاصة، وما ظهر من أفكاره مُسجّلاً فى يومياته. وملخصه.

- لا تحتاج إسرائيل إلى ثارات دَم على نطاق واسع فى فلسطين. عليها أن تأخذ قرار التقسيم - ١٩٤٧ - كخطوة أولى، وتحاول إستخلاص مساحته كلها (وحولها) دون جراحة كبيرة، وتُقيم عليها بناءً متيناً لدولة قوية، يُساعدها على ذلك أن قرار التقسيم الذى أنشأ إسرائيل أعفاها من بناء دولة على أرض خلاء. فقد كان هناك فى فلسطين بلدٌ من أكثر بُلدان المنطقة نُمواً فى مجالات الزراعة - وتقدُّماً فى هياكل البنية الأساسية اللازمة بما فى ذلك الطرُق والموانىء والمطارات (وكانت هذه البنية الأساسية (حتى من قبل دولة إسرائيل) مطلوبة لحركة الجيوش البريطانية الإمبراطورية

فى منطقة ما بين وادى النيل ووادى الفرات، ونفس الشىء، من وقف الإمبراطورية العثمانية قبل الظهور البريطانى شرقى البحر الأبيض).

- ومع أن «بن جوريون» وَجَدَ مشروع دولته اليهودية يُواجَه بنوع من المقاومة المحلية يَنشط أحـ انا ويَخمد أحياناً، فقد كان ظنه أنه يستطيع تهدئة الأمور داخل الدر يهودية بينما تستطيع هذه الدولة «قضم» و«هضم» ما تَحَقَّق لها وهو فى النوايا غير المعلنة بدايةً صالحة للتوَسُّع والإستيلاء على ما هو أكثر، وكان «بن جوريون» على يقين كامل بأن الدولة العربية (الفلسطينية) إذا قامت (وفق قرار التقسيم). سوف تتلهى بصراعاتها الداخلية بين القوى والأحزاب والعائلات (التى ظَهَرت فى الحياة الدينية والإقتصادية والسياسية والثقافية، أثناء الحكُم العثمانى لفلسطين - وبعده إبان الإنتداب البريطانى).

- ولعرقلة إمكانية قيام دولة عربية فى فلسطين (وفق قرار التقسيم) فقد وافق «بن جوريون» دون تردد طويل على قيام الملك «عبد الله» ملك الأردن فى ذلك الوقت - ١٩٤٨ - بضَمٍّ غرب فلسطين (الضفة الغربية) إلى مملكته. وقد وَجَدَ «بن جوريون» بعد تفكير أن ذلك أسلم «لإسرائيل من قيام دولة فلسطينية تتناحر فيها القوى والأحزاب والعائلات، وكان تقديره أن «المملكة الأردنية الهاشمية» التى أعلن الملك قيامها بضَمٍّ ضفتى الأردن . شرقاً وغرباً - يجعَل من هذه المملكة جسراً بين اليهودية وبين مشرق وجنوب الشام.

وطبقاً لنفس الإستراتيجية فإن «بن جوريون» أثناء تنفيذ مشروع الدولة اليهودية حرص على بناء عِدَّة جسور إضافية تُساعِد ذلك الجسر عبر الأردن. وقد خطر له أن الأقلية العربية الباقية فى إسرائيل يمكن أن تكون جسراً إلى الفلسطينين حيث كانوا.

وخطر له أن يكون «الدروز» سواء فى جنوب سوريا أو فى جبَل لبنان جسراً إلى داخل سوريا ولبنان.

وخطر له أن إذا أعطى لبعض العناصر المارونية فى لبنان وَقتاً فإنها فى الوقت المناسب «مشروع جسر» مؤدٍ إلى ميادين فسيحة من حول لبنان.

وكان حسابه أن تكون هذه الجسور كلها مفتوحة لحركة تفاعُل تنشط يوماً بعد يوم، وتساعد عملية «الصيد بالشباك» بغير حاجة إلى سلاح كثير أو دَم غزير.

لكن قرار مصر فى العصر الملكى بالإشتراك فى حرب فلسطين أفسد على «ديفيد بن جوريون» بعض حساباته. ثم حَدَث سنة ١٩٥٢ أن النظام الملكى سقط فى مصر، وكانت المفاجأة أن النظام الجديد الذى حَلَّ محله تشدد أكثر فى تمسكُه بهوية مصر العربية وألقى بكل ثقله فى الشام بما خَلَق حالة تُوَحُّد عربى زادت قوتها حين جاءت الثورة الجزائرية بالمغرب إلى قلب المشرق، وأدى ذلك إلى إنقلاب فى الموازين داخل المنطقة وحولها، وذلك أفسح الطريق لحالة فَوَران شديد أطاحت بأوضاع تقليدية بدت من قبل ثابتة ومُستقرَّة. وفى نفس الوقت فإن هذه الحالة من الفَوَران الشديد سَبَّبتَ هَزَّات عنيفة جَرَت فى الشام ومن نتائجها أن الجسور التى حسبتها إسرائيل طُرقاً مفتوحة للصيد بالشباك راحت تتقطع. ومع أن الإنفصال بين مصر وسوريا - سنة ١٩٦٢ - وتعثُّر مفاوضات الوحدة بين مصر وسوريا والعراق - سنة ١٩٦٣ - قد أثبتت لإسرائيل أن تحقيق الوحدة العربية صعب، فإنها فى نفس الوقت أثبتت لها أن إستمرار الإنفصال مستحيِّل، وأن تيار الوحدة العربية غالب برغم ما يجرى فى دمشق (بعد الإنفصال) وما يجرى فى بغداد (بعد تتابع الإنقلابات). وكان التَحَسُّب الإسرائيلى أن ذلك الفوران الشديد فى الشام قد يساعد مصر على صياغة جديدة لحركة القومية العربية. وكانت سلسلة مؤتمرات القمة العربية التى انعقدت بالذات سنة - ١٩٦٤ - مؤشراً إلى إحتمال أن تصبح تلك الصياغة مُمكِنة إذا تَحوَّلت هذه المؤتمرات إلى مفردات جديدة لها.

ولحسن حظ إسرائيل (وسوء حظ العَرَب) فإن ما كانت تتحسَّب له من مؤتمرات القمة العربية (رغم ضآلة إحتمالاته). لم يَتحَقَّق. ولم تتمكن مؤتمرات القمة المتلاحقة من صُنع مُفردات جديدة تصلح لإعادة صياغة حركة القومية العربية من معدن أكثر صلابة..»

ويواصل الأستاذ / هيكل قراءته وتحليله فى الوثائق الإسرائيلية

القدس لم تكن داخل الحسابات:

تحت عنوان جانبى باسم (حكاية» كتب الأستاذ / هيكل «ومن اللافت للنظر أن قراءة الوثائق الإسرائيلية فى المرحلة الأولى لقيام الدولة تُظهر بكل وضوح أن «القدس» لم تكن على قائمة الأولويات الكبيرة على جدول أعمال مؤسس الدولة «دافيد بن جوريون».

كانت منطقة النقب على رأس الجدول، وأما مدينة القدس فقرب الذيل، ، والسبب أن «بن جوريون» كان يخاف من القدس على «روح الدولة». كما تُسَجّل المحاضر مراراً، وكان رأيه أن روح الدولة الحديثة، «علمانية بالضرورة» وكانت خشيته أن القدس سوف تقلب حركة الموازين لصالح التديُّن والدين، وقد تؤثر على فكرة العلم والتحديث وبناء قواعد القوة المادية لدولة إسرائيل.

كان ذلك رأيه مبكراً ومن قبل قيام الدولة، وفى ذلك الحين لم يكن يمانع فى تقسيم المدينة بين العرب واليهود، ولا فى وضعها كلها تحت سُلطة الأمم المتحدة كما وَرَد فى القرار الصادر عن الجمعية العامة فى نوفمبر سنة ١٩٤٧م. لكن «بن جوريون» راح يُغَيِّر رأيه ويزيد حرصه على القدس مدفوعاً بضغوط اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان هؤلاء اليهود الأمريكيون بالنسبة له سَنَد المرحلة بمعنى أن مشروع الدولة اعتمد على يهود أوروبا لينمو جنيناً ويُولَدَ ـ والآن ـ وتحت

موازين قوة جديده فعليه أن يعتمد على يهود أمريكا ليعيش ويكبر».

ويعد هذا المقتطف من كتاب الأستاذ هيكل «عام من الأزمات» يجرنا الحديث عن يهود أمريكا والذين كانوا يشكلون قوة ضغط على «بن جوريون» كى يضع مدينة القدس ضمن حسابات الدولة الإسرائيلية. إلى حديث «إفرايم سنيه» عن موضوع «إسرائيل ويهود العالم».

يبدء سنيه الفصل السادس من كتابه عن «العالم الذى نعيش فيه» والذى يتناول فيه علاقة إسرائيل بدوائر القوة العالمية القديمة والجديدة، على حدّ سواء .

يبدء هذا الفصل بالحديث عن «إسرائيل والشعب اليهودى» ويصف «سنيه» الشعب اليهودى بأنه: القوة العظمى الوحيدة التى لن تدير لنا ظهرها أبداً ولأنها القوة التى نستطيع الإعتماد عليها دائماً. ثم يضيف: إنه لا مبالغة فى تعبير «القوة العظمى».. لماذا؟ ويجيب:

«لأن موقع اليهود فى الأجهزة الإقتصادية ووسائل الإعلان، والأجهزة العلمية فى العالم، يمنحهم تأثيراً كبيراً ومتعدد المجالات يفوق وزنهم العددى الحقيقى ويعلق على ذلك بقوله: «ليس هناك مايخجلنا من هذا الإعتراف، كما لا يوجود مايموه هذه الحقيقة «ويبرر ذلك بحديثه عن خرافة «التفوق اليهودى» لدرجة أنه يرجع تقدم وتفوق أمريكا إلى كونها الدولة التى استوعبت أكبر عدد من المهاجرين اليهود بالمقارنة مع الدول الأخرى، والتى فتحت أمامهم مجالات كثيرة حيث وصل اليهود إلى ذروة تأثيرهم، ولأن الولايات المتحدة الأمريكية حالياً هى الدولة العظمى الوحيدة فإن مدلول هذا الأمر يشكل قيمة استراتيجية مهمة لإسرائيل.

- **تحالف مع أمريكا**

فى حديثه عن العلاقة مع أمريكا ـ الذى جاء مباشرة بعد حديثه عن اليهود العالم يقول «سنيه» إن هذه العلاقات فى ظل كلينتون ورابين ـ قبل إغتياله بالطبع ـ بلغت ذروة لم نشهد لها مثيلاً.. وتعززت رغم تغير الظروف العالمية بشكل جذرى، حيث انتهت الحرب الباردة، وتزايد الميل إلى الإنعزالية فى أمريكا، ومع ذلك بقيت أمريكا القوة العظمى الوحيدة فى العالم، كما بقى عامل آخر وهو: «المصلحة الأمريكية فى التدفق الحر للنفط من الشرق الأوسط، ومن أجل ضمان ذلك ترى واشنطن أن من مصلحتها إستمرار الإستقرار فى المنطقة، ومواصلة كبح الأوساط المتطرفة التى تهدد النظام القائم.

وهناك عامل ثالث لم يتغير يعبر عنه السياسى الإسرائيلى العمالى بأنه دور اليهود فى السياسة الأمريكية حيث يوجود للتأثير السياسى والمالى من جانب «الجالية اليهودية»! أهمية كبيرة فى صراعات القوى الداخلية فى الولايات المتحدة الأمريكية. فالكثير من السياسيين يحددون موقفهم نحو أزمة الشرق الأوسط وفقاً لقوة تأثير الناخبين والمؤيدين اليهود.

وتأييد إسرائيل بشكل، بالنسبة لهم، ثروة إنتخابية مهمة وحيوية.

ويقرر «سنيه» أن الرغبة فى ضمان تأييد «الجالية اليهودية» فى أمريكا عن طريق ما يعبر عنه بـ «التأكيد على الإلتزام بقوة وأمن إسرائيل» يمثل أحد الأسس الرئيسية للصداقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، فى مرحلة مابعد الحرب الباردة، ومع ذلك، فإنه يتساءل بعد ذلك مباشرةعما يجب على إسرائيل أن تحصل عليه مقابل علاقاتها الخاصة مع الولايات المتحدة فى العقد القادم؟ ورداً على هذا التساؤل يقول. إن أهم ماتريده إسرائيل هو الحفاظ على علاقات الثقة المتبادلة بين الإدارة الأمريكية وبالأخص للرئيس.. وبين حكومة إسرائيل ومن يقف على رأسها.

إستراتيجية الردع الإسرائيلى

فى هذا الفصل نستعرض مع الأستاذ/ محمد حسنين هيكل بعض ملامح إستراتيجية الردع الاسرائيلى.. بدءاً من السعى للتفوق على كل الدول العربية مجتمعه فى السلاح التقليدى. علاوة على «القنبلة الذريه».. وصولاً إلى الردع النووية.

تمتلىء الوثائق الإسرائيلية بتقاريرها وشهاداتها ومعلوماتها بإشارات دائمة ومتكررة وملحة إلى ضرورة أن تكون لإسرائيل قنبلة نووية تكون الحامى النهائى لها وسط جموع العرب المحيطين بها فى كل ناحية، والذين أضمروا لها العداء حتى من قبل قيامها، ثم رفضوا التعامل الطبيعى (التطبيع) معها بعد قيامها، وحتى بعد إنتصارها عليهم عسكرياً فى سنة ١٩٤٨.

وتبدأ أولى الإشارات فى الوثائق الإسرائيلية إلى القنبلة النووية حتى قبل قيام الدولة، ويرِدُ الإشارة بغير تسمية فى محضر إجتماع للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية حضره «بن جوريون» سنة ١٩٤٧. وقال فيه إنه

«عندما تقوم الدولة اليهودية فى وسط هذا البحر من الحقد العربى عليها فإن ضمانها الوحيد هو الحصول على سلاح علمى متطور من مستوى ذلك السلاح الذى حَسَمت به الولايات المتحدة حربها مع اليابان (القنبلة الذرية).

ثم يستطرد «بن جوريون» ليقول:

«الدولة اليهودية عندما تقوم لا ينبغى لها أن تكرر تجربة يهود أوروبا الذين لم ينتبهوا إلا بعد فوات الأوان إلى أن «هتلر» يريد «إبادتهم فى غرف الغاز»! وإذا لم نقف للعرب من قبل الدقيقة الأولى فإن «المحرقة» «الهولوكست» التى جرت فى أوروبا سوف تتكرر هنا فى الوطن اليهودى، وذلك لا ينبغى أن نسمح به مهما كانت المخاطر ومهما بلغ الثمن»

ويعلق الأستاذ / محمد حسنين هيكل

(وبعد إقتراب «جمال عبد الناصر» من قمة السلطة فى مصر سنة ١٩٥٤ راح «بن جوريون» يتحدث بصراحة أكثر عن «القنبلة»)

وفى إجتماع للجنة السياسة الخارجية للحزب الذى كان يرأسه وهو حزب «الماباي» وبتاريخ مايو سنة ١٩٥٤ فتح «بن جوريون» عقله وقلبه لأعضاء اللجنة قثلاً - طبق وقائع المحضر:

«إن العرب - كما نرى من حولنا - يظنون أنهم وجدوا زعيماً يُوَحِّد شملهم ويقود صفوفهم إلى حرب إبادة ضد إسرائيل.

إن العرب لم ينسوا قط إهانة هزيمة جيوشهم بواسطة جيشنا وهُم الأكبر منا عدداً فى السكان، وفى مساحة الأرض وفى حجم الموارد، وسوف يعودون مرة ومرة لقتالنا وهُم يقدرون على تَحمُّل هزائم يستوعبونها بحجم السكان والأرض والموارد، وأما إسرائيل فإنها لا تستطيع بمعنى أن إسرائيل إذا خَسَرَت الحرب مرة خسرت الحياة إلى الأبد!.

ذلك ما ينبغى أن تعرفوه جيداً، وأصارحكم أن الأرق يتملكنى كل يوم ويحرمنى من النوم كل ليلة عندما أفكر فى المصير المظلم الذى يمكن أن يُرَتِّبه «ناصر» ومشايعوه فى العالم العربى لنا، ولا يمكن أن أستريح إلا إذا كان لدى إسرائيل سلاح للردع النهائى يكون هو الحماية الأخيرة للشعب اليهودى.

إننا فقراء فى موارد الجغرافيا إزاء العالم العربى ولكننا أغنى منهم بموارد العقل والعلم، وأنا انتظر من رجال مثل «آينشتين» (صاحب نظرية «النسبية») و«أوبنهيمر» (مدير المشروع النووى الأمريكى) و«تيللر» (مهندس القنبلة الهيدروچينية) والثلاثة يهود ـ أن يقوموا من أجل إسرائيل بما قاموا به من أجل الولايات المتحدة»

وكان «بن جوريون» قد بدأ يتحرك فعلاً نحو خيار نووى إسرائيلى راح يتحدث عنه باستمرار باعتباره «الضمان النهائى» إذ بدا أن كل شىء «يمكن أن يضيع»!

وكانت أول خطوة لـ «بن جوريون» هى تعيين العالم الألمانى اليهودى الشهير «إرنست بيرجمان» مستشاراً خاصاً له للشئون العلمية!»...»

وتخطياً لكل الوقائع المسرودة فى كتاب أ / هيكل متمثلة فى مراحل وصول إسرائيل لإنتاج قوتها النووية..

أكذوبة «الأرض مقابل السلام»

«الأرض مقابل السلام».. مصطلح تردّد كثيراً فى أروقة الأنظمة العربية.. فهل يعلم أحد أن هذا المفهوم «صناعه» وأن هذا المفهوم «بقوة الواقع المفروض علينا سواء بقوة سلاح وردع نووى إسرائيلى أو بتمزق وارتباك عربى» يدخل فى دائرة إختصاص القوة حيث القوى يحتل أرضاً ويفرض شروطاً مقابل استرداد هذه الأرض.. «تلك اللعبة» التى بدءتها إسرائيل منذ ١٩٤٨ وحتى الآن.. ثم نأتى نحن فنقول «الأرض مقابل السلام» ولكن بأى قوة نستطيع فرض هذا المفهوم على أى مائدة من موائد المفاوضات. وعن هذا كتب الأستاذ / محمد حسنين هيكل يقول:

«... ثم تجىء وثيقة إسرائيلية أخرى متأنية وواضحة وهى مذكرة كتبها رئيس هيئة الأركان الجنرال «موشى ديان» إلى وزير الدفاع ورئيس الوزراء (بناء على طلب من «جوريون» فيما يبدو).

وتقول مذكرة «موشى ديان» بالنص:

أ - إن الحل الكامل الضرورى لمشكلة إسرائيل الأمنية يتطلب إسقاط نظام ناصر فى مصر. وهناك أساليب عدة يمكن بها مواجهة التطورات الأخيرة (يعنى صفقة الأسلحة المصرية مع الاتحاد السوفيتى). وإذا أريد تأجيل

تنفيذ الحل الكامل فى الوقت الحاضر إنتظاراً لظروف معينة فإنه لابد أن يكون مُستقرا لدى الجميع أنه يستحيل أن يكون هناك حل نهائى دون إسقاط ناصر من السلطة، فهذا وحده ما ينزع جذور وأسباب الخطر الذى يتَهَدَدٌ إسرائيل.

ب - إذا كان من المطلوب إسقاط نظام ناصر فإنه من الضرورى ولتحقيق هذه المهمة السعى إلى مواجهة حاسمة مع المصريين فى وقت قريب.. أقرب وقت ممكن وإلا فإن التكاليف الأمنية قد تصبح عالية بالنسبة لهذا البلد (إسرائيل) لأننا إذا إنتظرنا حتى يتم إستيعاب صفقة الأسلحة التشيكية لمصر، فإن أى عمليات إسرائيلية ضد مصر سوف تكون غالية الثمن.

جـ - إن الحكومة (فى إسرائيل) مطالبة بأن تسعى للحصول على مَدَدٍ إضافى كبير من الأسلحة المتطورة وذخائرها قبل أى تاريخ يُحَدّد للمواجهة، وعلى أى حال إنه لا يجب ربط الأمرين لزاماً ببعضهما فى التوقيت (أى المواجهة الحاسمة مع مصر. والحصول على مَدَد جديد من الأسلحة المتطورة).

د - إن هذا المفهوم يختلف عن المفهوم الذى ينادى بحرب وقائية ضد مصر لأن «الحرب الوقائية» قد تبدو حرباً عدوانية تشنها إسرائيل مباشرة، والدولة (إسرائيل) لا تستطيع أن تواجه العالم من موقف المعتدى!

هـ - إن إسرائيل لا تحتاج إلى أية خطط لإستفزاز مصر لأن حكومة مصر نفسها كفيلة - بعنادها ورفضها للحلول الوسط دائماً - بأن تقدم أسباباً للإستفزاز تستغلها إسرائيل - أى أن على إسرائيل أن تكون مُتيقظة لأن تكون المفَجر «detonator» عندما تنشب أى أزمة حتى تستطيع الإمساك بها وتحويلها إلى فرصة قابلة للتفجير إن رُؤِىَ بأفضلية ذلك، وهكذا فإن التوصية التى تتقدم بها هيئة الأركان هى التَنَبُّه بطريقة واعية لأى إستفزاز مصرى، وللإمساك به وتكبيره بحيث تكون الفرص مفتوحة أمام

صانع القرار الإسرائيلى يَستَغِل منها ما يشاء فى التوقيت الملائم له!

وعندما قرأ «بن جوريون» مذكرة رئيس الأركان كان طلبه أن تعد رئاسة الأركان وتعرض عليه خططاً بديلة.

- خطة لإحتلال غزة وفصل القطاع عن مصر.
- خطة لإحتلال شرم الشيخ والمنطقة المحيطة بها.
- خطة لإحتلال خط العريش - رأس محمد فى سيناء.
- وخطة لإحتلال سيناء كلها.

وهنا تظهر فى الوثائق الإسرائيلية لأول مرة بداية شعار «الأرض مقابل السلام» يَتَطَوَّر فيما بعد إلى نظرية كاملة.

وقد شرح «دافيد بن جوريون» باستفاضة فى إجتماع لهيئة الأركان فكرة وسياسة (ثم نظرية) «الأرض مقابل السلام» على النحو التالى.

«عندما قامت قوات جيش الدفاع باحتلال منطقة العريش فى مصر فى الأيام الأخيرة من حرب سنة ١٩٤٨ (ديسمبر) - فقد لاحظ أن الملك «فاروق» ووزارته وكل أركان حكمه كانوا فى حالة يرثى لها. وقد هَرْولوا إلى سفارات بريطانيا والولايات المتحدة يطلبون تدخل حكوماتها بسرعة قبل أن تتكشف الحقيقة، وكانوا على إستعداد لدفع أى ثمن حتى يتجنبوا فضيحة علنية أياماً أو أسابيع لهم فيها أرض محتلة.

العرب يفعلون ما يشاءون لكنهم يخشون من الفضيحة، وهنا فإن الضغط عليهم سهل خصوصاً مصر التى تعتبر نفسها أكبر وأهم دولة عربية. مصر لا تستطيع مواجهة العرب الآخرين وجزء من أرضها تحت الإحتلال خصوصاً إذا كانت القوة المحتلة هى إسرائيل الصغيرة التى يكرهونها ويتعاملون معها بأنفة وازدراء.

وناصر شأنه شأن فاروق، وربما أكثر من فاروق، لن يستطيع تحمل فضيحة إحتلال جزء من أرض مصر بواسطة إسرائيل، بينما هو يحاول إخراج إنجلترا من بلده بعد إحتلال سبعين سنة.

نحن هنا - يقول «بن جوريون» - أمام فرصة أو معادلة سياسية جيدة ونافعة، أرض - جزء من أراضيهم كبير أو صغير حسب الظروف - يتم إحتلاله بواسطة قواتنا وإذا أرادو أرضهم فعليهم أن يدفعوا الثمن».

ثم يضيف «بنّ جوريون» فى الخلاصة «الأرض مقابل السلام» (ويصير التعبير مثلاً، ثم شعاراً. ثم سياسة ونظرية كاملة طُبقت فى حينه ومازالت تُطَبَّق حتى الآن!).

ويكمل الأستاذ / هيكل

(ومن المفزع أن السياسة العربية الراهنة تستعمل الآن هذا الشعار وهذه النظرية وكأن كليهما من إجتهاداتها أو اختراعاتها، غافلة عن الأصل، وناسية تجارب عديدة جرى فيها الإمساك بمواقع متعددة كبيرة وصغيرة من الأرض العربية - رهائن فى مقابل فدية - عودة أرض فى مقابل تراجع حق!).

الخيار «شمشون»

يظل العامل البشرى يلقى بظله حتى مع أكثر القرارات حسماً فعند تنفيذ القرار يبرز العامل البشرى والذى قد تدخل فى حساباته «الخوف.. التردد.. إمعان الفكر» مما قد يهدد عملية تنفيذ القرار.. وفى حالة «القنبلة الذرية» كان الضمير الإنسانى إلى حد ما.. و«الضمير العلمى» إلى حدّ كبير.. يقلقان «دافيد بيرجمان» مما أستدعى الأمر «ترويض ضميره». وقام بهذه المهمة - «بن جوريون» فى حوار مُطوّل مع «بيرجمان» المسئول الأول عن تنفيذ المشروع النووى الإسرائيلى وتصنيع القنبلة.. وقد وصلت لبيرجمان رسائل كثيرة من زملاء له من العلماء محاولةً إثناءه عن الإشتراك عن هذا العمل.. وهنا نقرأ فى سباحة الأستاذ / هيكل.. ع هذه المرحلة من «ترويض ضمير» دافيد بيرجمان ويتضح لنا أيضاً من خلال حوار «بن جوريون» مع بيرجمان خطوط «جديدة» بالنسبة لنا وهى استراتيجيه الإستنزاف والتى طبقتها إسرائيل ومازالت تطبقها حتى الآن.. مما يوضّح بشكل أكثر وضوحاً وجلاء.. من أن السياسة الإسرائيلية تنتهج خطوط ثابتة وليست مجرد ردود أفعال آنية، أو سياسات تتغير بتغير الساسة والحكومات.. ونعود لـ «دافيد بيرجمان» وحوار «بن جوريون» معه.. ومع الأستاذ محمد حسنين هيكل. وهذه الفقرة

تبدأ بالصراع الدائر فى ضمير وتفكير «دافيد بيرجمان»

«..... ولكى يريح ضميره ويتمكن من الرَدّ على زملائه وأصدقائه فقد ذَهَبَ «بيرجمان» يحمل هواجس الجميع تأثراً بهم إلى «بن جوريون» وتَوَلى «بن جوريون» إقناعه مُركِّزاً على حُجتين:

■ الحجة الأولى أن خطر إبادة الشعب الإسرائيلى بحصار وسلاح أعداء محيطين بدولة إسرائيل من كل ناحية. يفرض على «الدولة» أن تُرتِّب لنفسها «قوة ردع تقدر على كبح نزعات العدوان».

لعل مقدرة «بن جوريون» على الإقناع هى التى أملت على الدكتور «بيرجمان» أن يكتب خطابه السرِّى الهام إلى صديقه «مائير يارى» وهو واحد من أبرز قادة حِزب الـ «مابام» (وكان زعيم الجناح اليسارى فيه). يقول بالنص:

«إننى مُندَهِش أن رَجُلاً مثلك على إستعداد لأن يُغمِض عينيه عن الحقائق العملية، ويفكر فى الدنيا كما يتمناها وليس كما نراها أمامنا. واعتقادى أنه ليس هناك شخص فى هذا البلد لا يأمل ولا يدعو - على عكس المنطق الذى يحكم العالم اليوم وغداً - أن لا تدعو الحاجة إلى شىء لا نحبه جميعاً ولا نريده. لكنه يا عزيزى ليس مسموحاً لأى منا أن يستبدل المعرفة اليقينية لديه بتصوُّرات لا تسندها غير الأوهام. إننى لا أستطيع أن أنسى الـ «هولوكوست» وكيف انقضت على شعبنا مفاجأة وعلى غير إنتظار، واعتقادى أن الشعب اليهودى لن يسمح بأن نتكرر المفاجأة - أو الوَهم - مرة ثانية!»

وكانت الحجة الثانية التى تمكن «بن جوريون» من إقناع «بيرجمان» هى قوله (كما يُسَجِّل العالم الإسرائيلى - وزير العلوم فيما بعد - «يوفال نيمان» - وكان حاضراً فى إجتماع «بن جوريون» و«بيرجمان»):

«لك أن تطمئن إلى أن «القنبلة» عندما نصنعها لن تستعمل، لأن مجرد معرفة العرب أو شكهم فى أنها عندنا سوف يفرض عليهم أن يَتَعَقَّلوا ويلزموا الحَذَر. وإذا خابت تقديراتنا واستبد بهم الجنون، إذن فإننا نكون فى حِلٍّ من حماية أنفسنا ضد الإبادة. هذه هى المسألة... ويزيد «بن جوريون» على ذلك فى حديثه للدكتور «بيرجمان» (بشهادة «يوفال نيمان»):

«إننى أتعهد لك وللجميع بأن القواعد التى سنضعها لإستعمال القنبلة سوف تفرض على أى مسئول إسرائيلى يكون فى السلطة يومها أن لا يلجأ إلى هذا السلاح إلا عند اللحظة الأخيرة.

ثم أضاف «بن جوريون» بالعبرية: «ميكرع هاكول» - أى عندما يكون «كل شىء مُهدداً بالضياع». وفى الوثائق الإسرائيلية فقد أصبح إحتمال إستعماله القنبلة هو سيناريو «ميكرع هاكول» (سيناريو «قبل ضياع كل شىء»)! وفى إجتماع لـ «بن جوريون» مع الدكتور «دافيد بيرجمان» حضره «شيمون بيريز» - المساعد السياسى لرئيس الوزراء فى متابعة تنفيذ برنامج «ميكرع هاكول». كان «دافيد بن جوريون» أكثر صراحة فى شرح سياسته ويظهر أنها تَبَلوَرَت فى ذهنه بالفكر بعد أن طبقها بالفعل من زمن سبق. وطبقاً لرواية «شيمون بيريز» عن هذا الإجتماع - فإن «دافيد بن جوريون» قال للدكتور «بيرجمان» وقد أحَسَّ أن الهواجس مازالت تُراوده عن أخلاقية ما يفعله تحت إستمرار إلحاح زملاء له بين العُلماء ظَلَّ يؤرقهم أن يُوضع العِلم فى خدمة سياسة قد تكون غير ناضجة أخلاقياً - ما يكاد نصه أن يكون على النحو التالى:

«أريدك أن تعرف - يا عزيزى البروفيسور - أن ما أطلبه منك هو أن تساعد على أن يكون لهذا البلد (إسرائيل) رادعٌ نهائى وأنا أريده بالدرجة الأولى رادعاً نفسياً وليس رادعاً حربياً.

وأطمئنك إلى أننا لا ننوى الإعلان عنه إذا توصلنا إليه. والسبب أننا إذا أعلنا فسوف يُهَرول العرب على نفس الطريق، وهُم يملكون من الموارد ما

يزيد كثيراً عما نملكه، ثم إن السوفييت قد يتقدمون لمساعدتهم كما حدث في حالة السلاح التقليدي. ونحن لا نريد أن يصل هذا السلاح إلى يد العرب بأى ثمن، لأنه سوف يغريهم باستعماله غير مُقدرين للعواقب وخصوصاً أنهم لم يتأهلوا لثقافة الردع.

إسرائيل تفهم بشكل أفضل. نعرف أن وجود هذا السلاح - يغنى عن إستعماله. ثم إن شك العرب فى وجوده لدى إسرائيل مفيد أكثر من يقينهم أنه هناك، الشك يوقعهم فى حيرة خصوصاً إذا تذكروا حجم الجهد المطلوب علمياً. وحجم الموارد المطلوبة مالياً».

ويستطرد «بن جوريون» فى محاولته للتغلب على ما بَقى من هواجس الدكتور «بيرجمان». وحسب ما ينقله «شيمون بيريز» الذى كان حاضراً مشاركاً فى إجتماعهما. ليقول مُوَجِّهاً كلامه للعالِم الألمانى اليهودى:

«أريد أن أطمئنك أكثر - يا عزيزى البروفيسور - إلى أن إسرائيل لا تفكر من الأصل فى حل عسكرى حاسم ينهى عداء العرب لها.

سوف أقول لك لماذا؟

الحقيقة الأساسية فى أوضاعنا أننا لا نستطيع توجيه ضربة قاضية للعرب لأن لديهم ميزتين لا تملك إسرائيل ايتهما! الميزة الأولى عند العرب أننا إذا ضربناهم بكل قوة تراجعوا إلى أعماق أوطانهم. ولاحظ أن العكس ليس صحيحاً فى حالتنا لأن إسرائيل بلا عمق.

والميزة الثانية عند العرب أننا لو قتلنا من جنودهم عشرات ألوف. حتى مئات ألوف. فإنهم قادرون على تعويض خسائرهم من البشر فى ظرف شهور. إذا حدث لإسرائيل.. (وخاف «بن جوريون» من نذير الشؤم فيما يبدو فأضاف: «حماها الله») فإن هذا البلد ليس فيه فائض بشرى يمكن التضحية به . يهود العالم كلهم كما تعلم أقل عدداً من سكان بلد عربى واحد مثل سوريا .

مُحصلة ذلك. لكى تكون الحقائق ماثلة فى فكرك وضميرك طول الوقت:

١ - أننا لا نستطيع هزيمة العرب بضربة قاضية - وهُم يستطيعون إذا تمكنوا.

٢ - إن لدى العرب موارد هائلة خصوصاً من البشر - ونحن فى الدم أمام حساب عسير لأن الدَمَ اليهودى نادر!

وإذن ففكرة معركة عسكرية حاسمة بالأسلحة النووية يجب أن تخرج من كل التقديرات.

نحن مُعَرَّضون لها، ويجب ألا نسمح للعرب بفرصة تمكنهم منها.

هُم يقدرون عليها، بينما نحن لا نستطيع فرضها عليهم مهما حاولنا.»

ويصل «بن جوريون» إلى نوع الحرب التى يراها ممكنة مع العرب فيقول:

«نحتاج مع العَرَب إلى مفهوم فى الحرب جديد»، ورأيى أنه يجب أن يكون حرب إستنزاف متواصلة ونشيطة فى كافة المجالات. وهذه الحرب يجب أن تكون سياسيه ونفسية وإقتصادية - وعسكرية إذا اقتضى الأمر، شرط أن نعرف أن للسلاح حدوداً فى حالتنا مع العرب.

العرب بالطبيعة نَفَسُهُم قصير، وهُم يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محددة، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم، وضعفت حماستهم، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جَمَعَت بينهم.

هناك حقائق أخرى (السياسى مازال يفضى إلى البروفيسور) تخص العرب.

تناقضاتهم الداخلية بينهم وبين بعضهم عميقة علاقاتهم بالعالم حولهم سيئة خصوصاً مع القوى الكبرى. هُم فى مشاكل مع الإمبراطوريات القديمة التى خرجوا بالكاد من مجال سيطرتها. وهُم على خلاف مع القوة الإمبراطورية الجديدة (الولايات المتحدة) يتهمونها الرغبة فى السيطرة

عليهم. وهُم برغم علاقاتهم العملية المهمّة مع الإتحاد السوفيتى لا يعرفون الروس ولا يحبونهم. لأن الحكام العرب يخشون على مصالحهم من الشيوعية. ثم إن الفقراء العرب يخشون على دينهم من الإلحاد، وفى الإجمال فإن بعض الحكام العَرَب يعتقدون أن موسكو تُعَبِّىء لهم الثورة، وبعضهم الآخر يظنون أنها تُعبىء لهم الكُفر - داخل صناديق الأسلحة - هذه الأحوال كلها تساعدنا على حرب إستنزاف متواصلة ونشيطة.

وترتيباً عليها فإن الأفضل لنا أن نَصِل بهم إلى حيث يسقطون من الإعياء ما دمنا لا نستطيع أن نفرض عليهم بالسلاح قبول وجودنا.

فى نفس الوقت فإن سقوطهم من الإعياء سوف يتولى تحديد معظم أسباب قوتهم مالية أو سياسية أو معنوية. لأنهم فى حالة السقوط من الإعياء سوف «يَغلّطون» مع الجميع - يوجهون المسئولية إلى كل الأطراف. ويُجنبوا أنفسهم أى نصيب منها، وهذا يكفل ألا يكون سقوطهم من الإعياء لمجرد الإرهاق المادى، ولكنه فى هذه الحالة الإرهاق المعنوى وهو أقرب وسيلة إلى فقدان الثقة بالنفس. وذلك أفضل الأوضاع بالنسبة لنا!

حرب إستنزاف متواصلة ونشيطة - هذا هو الحل، وهذا هو النوع المطلوب من الحرب».

ثم يصل «بن جوريون» إلى بيت القصيد فيقول لـ «بيرجمان» «هذا النوع من الحرب لا يحتاج إلى ما يمكن أن تعطيه (يا سيدى البروفسيور) لإسرائيل. لكن ما يمكن لك أن تعطيه يساعدها من حيث هو يُطمئنها ويريح بالها ضد أية مفاجآت لم تكن قد تأهبت لها، تلك سياسة إسرائيل شرحتها لك، لم أخف عنك شيئاً».

أسلوب الإستنزاف «والسقوط من الإعياء» يمتد إلى «المفاوضات»

إتبعت السياسة الإسرائيلية مع العرب أسلوب الإستنزاف على المستوى العسكرى.. بل وامتد هذا الأسلوب إلى المفاوضات..

فما هو أسلوب الإستنزاف؟.. و«السقوط من الإعياء؟

وكتب الأستاذ / هيكل تحت عنوان جانبى باسم «الصدى»

قد أضيف هنا أننى سمعت بنفسى تأكيداً مباشراً لإستراتيجية حرب إستنزاف العرب.

كان ذلك فى نهاية عام ١٩٩٣م. أى بعد أسابيع من إعلان إتفاق أوسلو....

أيامها كانت آمال القيادة الفلسطينية فى السماء، مُتَصورة أنها أخيراً أمسكت فى يدها بزمام قضيتها، وتولت بنفسها إدارتها بعد عهود ناب عنها غيرها فى تصريف الشأن الفلسطينى ثم حَدَث أثناء لقاء مع الرئيس الفرنسى «فرنسوا ميتران» تلك الأيام. فى قصر «الإليزيه» فى «فوجورج سانت

اونوريه». انني سألته إذا كان يتوقع قريباً نتائج تتوافق مع كل هذه الآمال المُعلقة على إتفاق «أوسلو»؟. ورد «ميتران» بما ملخصه أن ذلك يتوقف على ما أعنيه بكلمة «قريباً»؟. وقلت: «إنني لا أتحدث عن غد أو بعد غد. ولكن عن شهور خمسة أو ستة». وردَّ «ميتران» بتؤدة بما مؤداه «أنه سوف يكون راضياً إذا توصل الطرفان إلى حل خلال خمس أو ست سنوات وليس شهور»!

وأضاف «ميتران» بنبرة أقرب إلى التساؤل منها إلى السؤال: «فهمت أن عرفات متفائل بنتائج سريعة.؟».

وكان الرئيس «ميتران» يعرف الكفاية عن صداقة قديمة تربطنى بـ «ياسر عرفات» فقد كان لى حظ أن أقدم الرجلين أحدهما للآخر فى مكتبى أوائل سنة ١٩٧٤، ووقتها كان «ميتران» - بوصفه رئيس الحزب الإشتراكى - ضيفاً علينا فى مصر، وكان قادماً إلىَّ نهار بأكمله معى فى الوقت الذى كنت أوَدِّع فيه «ياسر عرفات» الذى كان عرفات «وجدها فرصة ليتحدث ولو لدقائق مع «ميتران» عُدتُ بالأثنين إلى المكتب لفرصة تجعل اللقاء أكثر من تعارف بالمصادفة، وتسمح للرجلين بحديث مُباشر ولو لربع ساعة. وذلك ما كان.

ومضت سنوات وأصبح «ميتران» رئيساً لفرنسا، ثم حَدَثَ قرب نهاية سنة ١٩٨٨ أن أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية إعترافها بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨.

يقول الأستاذ / محمد حسنين هيكل «وعلى سبيل الاستطراد والتذكرة فلعلى أقول اننى لم أكن مُتحمساً لإعتراف منظمة التحرير بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨، فكلا القرارين لا يخص المنظمة، ثم إن كليهما مُثقَلٌ بأعباء عشرين سنة من ١٩٤٧ إلى ١٩٦٧ لم يكن للفلسطنين فيها رأى مؤثر فى شئونهم وقضاياهم، وفى أحسن الأحوال فقد كان هناك من يستوحى موافقة من فلسطين على ما يتصوره صالحاً للشعب الفلسطينى وذلك لم يكن كافياً و عادلاً

وفى إجتماع مع قيادة منظمة التحرير فى تونس فى بداية شهر أكتوبر ١٩٨٨ وبدعوة من السيد «ياسر عرفات» وبطلبه أبديت رأيى أمام قادة المنظمة جميعاً وقد تلخص فى نقطتين.

١ - أن ما تستطيعه المنظمة الآن هو الإعتراف بقرار التقسيم (القرار ١٨١ الصادر فى نوفمبر ١٩٤٧) فهذا هو القرار الذى يخصُّها والمعَبِّر - رغم ما ينطوى عليه من ظلم - عن نوع ما من مرجعية الشرعية الدولية (إذا صَدَقَ التعبير). وتأسيساً عليه فإنها تستطيع إعلان قيام دولة فلسطينية.

٢ - أن المنظمة الآن، وعلى أساس ما حققته الإنتفاضة من تعاطف دولى هائل مع قضايا الشعب الفلسطينى، فى موقف يسمح لها، بل ويعطيها الحق فى مطلب مراقبين دوليين يتواجدون فى الأرض الفلسطينية المحتلة. وكان ظنى أن هذا الإقتراح، فوق كونه وسيلة لرقابة دولية على التصرفات الإسرائيلية، من شأنه أن يخلق سابقة وجود الأمم المتحدة على الأرض الفلسطينية، لأن الأمم المتحدة التى أنشأت إسرائيل بقرار منها عليها مسئولية سياسية وتاريخية لكى تكون على الأقل شاهداً على تنفيذ قراراتها.

ويكمل الأستاذ / هيكل...

«... وأتذكر أن القائد الفلسطينى الشهيد «أبو إياد» وهو المسئول يومها عن «الرصد».

والقائد الفلسطينى «أبو مازن» وهو المكلف بالتفاوض مع إسرائيل من يومها وحتى الآن - قاما بمناقشتى طويلاً فى حضور السيد «ياسر عرفات» وقيادة المنظمة مُجتمعة..

وكانت القيادة الفلسطينية أيامها شديدة الثقة بالولايات المتحدة الأمريكية وراغبة بكل سبيل فى كسب تأييدها وكان قرار المنظمة أن تعترف

بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨.

وقد تم هذا الإعتراف ضمن محادثات جرت فى جنيف بين رئيس منظمة التحرير «ياسر عرفات»، وظنه أن الوقت قد حان الآن لمقابلة رسمية بينه وبين الرئيس الفرنسى وبينه وبين رئيس الوزراء البريطانية فى ذلك الوقت «مرجريت تاتشر» وتصادف فى ذلك الوقت قرب نهاية سنة ١٩٨٨ أننى كنت فى زيارة عَمَل للندن واتصل بى السيد «ياسر عرفات» يسألنى - رمزاً - إذا كان فى مقدورى أن أساعد فى ترتيب موعد بينه وبين الرجل الذى التقاه فى مكتبى قبل سنين طويلة؟. وفهمت قصده بعد تلميحات إضافية تكاملت بها الرموز لتتقل إشارة مفهومة!

وكان أن إتصلت بالرئيس «ميتران» من لندن، ووافق وربما أضيف - للأمانة - أن طلب لقاء بينه وبين «ياسر عرفات» وَصَلَ إليه من مصدر آخر. فى نفس الوقت - أظنه «مدام منديس فرانس» زوجة السياسى الإشتراكى الكبير الذى سبق «ميتران» إلى رئاسة الحزب الإشتراكى وكان «منديس فرانس» يهودياً، وكذلك كانت زوجته التى نشطت بعده فيما كانت تقوم به الجالية اليهودية فى فرنسا تلك الأيام.

والآن - سنة ١٩٩٣ - كانم «فرانسوا ميتران» الذى تقابل مرات من قبل مع «ياسرعرفات» يرى أن الذين يتوقعون نتائج قريبة لـ «أوسلو» عليهم أن ينتظروا سنوات وليس شهوراً.. خمس سنوات أو ستا.

ويومها قلت للرئيس الفرنسى مندهشاً: «إننى لا أتصور أن عرفات بعد كل هذا الذى قدمه قادر على الإنتظار خمس أو ست سنوات»

ورَدَّ هو بسرعة قائلاً: «وهذا بالضبط ما يريدونه».

ثم راح يروى لى طرفاً من تفاصيل حوار بينه وبين «شيمون بيريز» قبل أيام.

قال لى إنه بنفسه سأل «بيريز»: «هل لديكم ما تقدمونه لعرفات بعد هذه المخاطرة التى أقدم عليها بإتفاق «أوسلو»؟».

ورد عليه «بيريز» بـ «أنهم لم يفكروا بعد!». ولم يُصَدق «ميتران» أن ذلك يمكن أن يكون صحيحاً، فسأل «بيريز» بما معناه: «ألم يكن لكم تصوّر لمشروع تطرحونه على الفلسطينيين عندما دخلتم معهم فى مُفاوضات سرية فى أوسلو؟».

ورَدّ «بيريز» بأن كل «تَصَوُّرهم كان أن يتعاملوا مع قيادة منظمة التحرير نفسها. وليس مع وفد يحمل ورقة تفويض «بالكلام» نيابة عنها فى مدريد أو واشنطن»، وأضاف «بيريز» إيضاحاً قال فيه: «إننا شعرنا أن الفلسطنين يتحتم عليهم تخفيض سقف توقعاتهم وأن أى وفد يحمل تعليمات من القيادة الفلسطينية لن يستطيع القيام بهذه المهمة، وعلى فرض أن وفداً فلسطينياً فهم هذه الضرورة وتصرف بالتجاوز مع تعليماته، فأسهل الحلول تغييره بوفد آخر. وأما إذا كانت القيادة نفسها هى المفاوض فمعنى ذلك أن الجالس أمامنا هو الذى يملك القرار، وحينئذ يكون الباقى علينا». وطبقاً لرواية الرئيس «ميتران» فإنه حين طلب من «شيمون بيريز» مزيداً من الشرح، سمع من «بيريز» ما معناه «أنهم يحتاجون وقتاً طويلاً يأخذون فيه الفلسطينين إلى مائدة المفاوضات ثم يعودون بهم من قرب المائدة، ويطرحون عليهم صيغاً واسعة مفتوحة لكل الإجتهادات، ثم يأخذونهم معهم إلى تمارين فى الصياغة قد تكون مفيدة فى تعليمهم دون أن تكون بالضرورة مؤدية إلى إتفاق معهم، ثم إنهم سوف يعرضون عليهم وساطات ووُسطاء يذهبون بأفكار ومقترحات ويجيئون بأفكار ومقترحات، ويتركونهم يذهبون إلى واشنطن ونيويورك ويعودون من واشنطن ونيويورك، ثم يكون من هذا الجهد كله أن يؤَقلم الطرف الفلسطينى نفسه تدريجياً على كيفية تخفيض سقف توقعاته».

ويعلق الأستاذ / هيكل

«.... وحين لاحظ الرئيس «ميتران» اننى أسمعه بإستغراب، اختصر الطريق ليقول بسرعة: «اعترف لى بيريز صراحة أن علينا جميعاً أن نعطيهم فرصة لعملية «تحضير» سياسى يؤدى إلى تخفيض سقف توقعات الطرف الفلسطينى». ثم وضعها «على بلاطة» كما يقولون ليضيف «كيف أقولها لك؟.. هُم يريدون عملية تدويخ قبل الدخول فى الكلام الجد!»

وكان المعنى واضحاً، وقد جاء إلىّ ناطقاً وفصيحاً وبلسان رئيس الجمهورية الفرنسية. لكنى نَسَيتُ «التخطيط» فيه - وقتها - إلى سوء نوايا «شيمون بيريز»، وكان علىّ أن أنتظر سنوات طويلة حتى أعرف أثناء «سباحة صيف فى قراءة للوثائق الإسرائيلية «أن المصَمِّم الحقيقى لهذا الأسلوب فى إدارة الصراع مع العرب كان «بن جوريون»، وكل ما فَعَله «بيريز» أنه استلهم تنويعه منه وطبقها فى إدارته للمفاوضات مع الفلسطينين: التدويخ عن طريق الإستنزاف السياسى!

أى أن «التلميذ» (شيمون بيريز) كان مجرد صدى لصوت «الأستاذ» (دافيد بن جوريون).

لهم ثوابتهم.. ولا ثوابت لنا

من الأفضل أن نعترف بأن السياسة الإسرائيلية تسير حسب ثوابت راسخة يتم الحفاظ عليها من قبل المؤسسة الأمنية الإسرائيلية.

وحتى فى صراعهم مع العرب ظلت تلك الثوابت لا تتزعزع.. فهل آن الأوان لنتعلم من عدونا؟

وكتب الأستاذ/ هيكل تحت العنوان الجانبى «ثوابت»

• ثوابت

يشعر أى قارئ للوثائق الإسرائيلية طول الوقت بأن سياسة الدولة اليهودية تمشى على خطوط ثابتة مُحَدّدة لا تتأثر بتغيير الحكومات، ولا بحلول مسئول خلفاً لمسئول سبقه فى منصب من المناصب الكبرى فى الدولة ثم يستنتج قارئ الوثائق الإسرائيلية من كل مايراه أمامه أن هذه الخطوط السياسية الثابتة والمحددة ليست فى إختصاص الأحزاب المتصارعة على الساحة السياسية فى إسرائيل. ولكنها موكولة إلى قوى أخرى يتجلى نفوذها واضحا فى كل موقف، وتظهر بصمات أصابعها على كل قرار. ثم يصل قارئ الوثائق الإسرائيلية إلى مُحصلة تظل محسوسة فى إدراكه طول الوقت، وهى

أن «مؤسسة الأمن». وليست الحكومات أو الوزارات المتعاقبة على الحكم - هى صاحبة القول الأول والأخير فى الطريقة التى تتصرف بها إسرائيل سواء فى ممارسة إدارة شئون الأمن كل يوم. أو عندما تقع الأزمات أو المخاطر. الساسة فى إسرائيل - كما يبدو من الوثائق - مثلهم مثل الساسة العرب دون حاجة إلى قراءة وثائق!! يكرهون بعضهم إلى درجة أن كثيرين منهم حتى فى مجلس الوزراء الواحد لا يطيقون الجلوس فى ذات المكان مع زملاء لهم إلى جانب ذلك فإن رباط الحزبية بين أعضاء الحزب الواحد هو إشتباك مُستمر بين مجموعات متفرقة ومُتناحرة، بل إن إطار الحزب الواحد المحيط بالكل هو فى الواقع سور حول حلبة مصارعة هدفه مَنع الآخرين من التدخل لإنقاذ المصابين أو تخليص المتشابكين، أو حتى تهدئة الخواطر بينهم إلى حين يفرغ كل منهم شحنة مالديه من كراهية وعُنف إزاء رفيقه أو زميله فى الحزب الواحد وعلى سبيل المثال فقد كان شعور «دافيد بن جوريون» تجاه خلفه عندما ترك الوزارة للمرة الثانية «سنة ١٩٦٣»، وهو «ليفى أشكول».. نوعاً من الإستخفاف واصلاً إلى حدّ الإزدراء وعلى نمط ساسة إسرائيل كان جنرالات إسرائيل: «موشى ديان» لم يكن يطيق «إسحاق رابين» والعكس صحيح و«بيجال دين» يكره «بيجال آللون» والعكس صحيح و«حاييم بارليف» سَيِّئ الظن فى قدرات، دافيد إليعازر والعكس صحيح.. وهكذا والراجح أن التفسير المعقول لهذه الظاهرة على مستوى الجماعات وعلى مستوى الأفراد فى إسرائيل كامن فى ظروف وملابسات نشأة الدولة اليهودية وقيامها وهذا التفسير المعقول لهذه الظاهرة مؤداه أن الأحزاب السياسية العاملة بعد قيام الدولة كانت كلها فى الأصل وعند الجذور الأولى جماعات نشأت فى أوطان بعيدة، ونشأت بطريقة سرية. وكان عملها الرئيسى تجنيد وشحن الرجال والنساء والأطفال المستعدين للهجرة إلى الوطن اليهودى المأمول وهذه العملية تقتضى جَمع التَبَرُّعات والحصول على الأموال بكل سبيل للصرف على

التنظيمات وعلى رحلات العودة إلى أرض الميعاد «عاليا» (Aliya) والتكوينات السياسية عندما تنشأ فى بيئة معينة.

ونضطر إلى ممارسة عملها فى هذه البيئة سراً وتحت الأرض فى كثير من الأحيان. ثم يكون من ضمن مهامها الحصول على تبرعات مالية أو عينية (أسلحة أو مهمات مثلاً) تدخل - وتُجُرُّ معها المنتسبين إليها فى إتجاه علاقات يصعب أن تكون سَوِيَّة، خصوصاً مع تنوُّع الخلفيات الطبقية والثقافية التى تستمد منها هذه التكوينات السياسية أعضاءها وأنصارها ومُشجعيها. وما ينطبق على التكوينات السياسية ينطبق بشكل من الأشكال على الأفراد. فالأجيال الأولى من زعماء إسرائيل السياسيين وقادتها العكسريين. وحتى الرجال الذين برزوا فى مجالات العمل الحكومى والنشاط الإقتصادى والتوجيه الفكرى، كلهم مهاجرون من أوطان مُتعددة ومن خلفيات مُتباينة. وبأمزجة لم يُرَوضها مناخ عام سائد يرسى بالتراكمُ التلقائى أصولاً فى التعامل بين الناس، وتقاليد تُنظم العلاقات داخل بلد حديديتسابق كل من وصلوا إليه نحو النفوذ والسُلطة. فهما وحدهما ومهما كانت الوسائل ما يُميز كل واحد من المهاجرين عن غيره، والبلد بالطبيعة صغير، ومواقع النفوذ والسُلطة فيه بالضرورة ضيقة لاتحتمل ذروتها ولا حتى سفوحها غير مواقع محصورة تسكن فيها الأحزاب، ومربعات محدودة ينحشر فيها الساسة!

لكن «مؤسسة الأمن» خارج هذا كله. ويبدو أنه فى بلد يعتبر «الأمن» (بالمعنى الأوسع الذى يشمل الوجود والنمو والتوسع) هاجسه الأكبر وشاغله الحقيقى. فإن الظروف فَرَضَت فى نطاق «الأمن» نوعاً من النظام الصارم له قانونه وله سلطانه مُطاعاً من الجميع وفوقهم وهنا فإن شواغل وسياسات رئيس وزراء إسرائيل الأول (دافيد بن جوريون) لم تختلف عن شواغل وسياسات رئيس الوزراء الثانى «موشى شاريت» بل إنه حين تصور «شاريت»

أنه يستطيع أن يجرد ويبتكر ضمن نطاق «مؤسسة الأمن» فإن المؤسسة تصرفت طوال عام رئاسته للوزارة دون رجوع إليه واكتشف «شاريت» أنه يحتل مقعد رئيس الوزراء دون أن يمسك بسلطة رئاسة الوزراء، وفى ظرف شهور كان مُعتزلاً فى بيته، مجروحاً فى كبريائه، وممروراً حتى قتله الكمد وعندما جاء «ليفى أشكول» (رئيس الوزراء الثالث فى تاريخ إسرائيل) فقد كان عارفاً بحدود مُلتزماً بها (ولعله كان مُتَّعِظاً أيضاً بدرس ماجرى لـ «موشى شاريت».

شروخ فى جدار العرب

لا اقول.. أو لا أستطيع القول بأننا على مستوى الصراع كنا مخترقين وبجدارنا الكثير من الشروخ والثغرات إلا والمرارة ترعى فى حلقى ووعى..

وفى رحلة الكشف عن جذور الصراع من خلال وثائق إسرائيل كتب الأستاذ/ هيكل تحت عنوان «تحولات»

• تحولات

«... لكن الذى آثار التوَجُّس وإلى حَدّ مبالغ فيه (من قراءة الوثائق الإسرائيلية) كان مُقدمة إعلان بيان القمة العربية الأولى الذى وقعه الملوك والرؤساء العرب جميعاً.

وكانت هذه المقدمة ـ فى الترجمة المعتَمدة لوزارة الخارجية الإسرائيلية ـ تقول. إن قيام إسرائيل هو التهديد الرئيسى الذى يواجه الأمة العربية ويتطلب جهدها لمواجهته. إن إقامة إسرائيل خطر على الأمة العربية وسوف

يضاعف من هذا الخطر أن ينهض العرب مُصممين على حماية مياه الأردن حماية للوجود العربى ذاته، وعلى هذا الأساس فإن الدول العربية ينبغى لها أن تكون مستعدة بالخطط الضرورية للتعامل مع الجوانب السياسية والإقتصادية والإجتماعية بحيث تكون جاهزة لمواجهة أية عراقيل تقوم بها إسرائيل، وأن تكون جاهزة بالقوة العسكرية مُتأكدة أن استكمال هذه القوة يمثل الوسيلة الوحيدة لتحقيق الهدف النهائى بتصفية إسرائيل وكان من المصادفات أن هذا البيان صَدَرَ بعد خمسة عشر يوماً فقط من تولى الجنرال «إسحاق رابين» منصب رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى (١ يناير ١٩٦٤).

وفى إجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى لمناقشة بيان مؤتمر القمة العربى، لاحظت وزيرة الخارجية الإسرائيلية «جولدا مائير» أن هذه أول مرة يعلن فيها القادة العرب أمام الدنيا كلها وصراحة أن هدفهم النهائى تدمير إسرائيل، وردَّ الجنرال «إسحاق رابين» الذى كان حاضراً الجلسة ومُشاركاً فى المناقشة العامة بأنه «أخذ علماً بذلك» وهو يعتقد أن هذا الإعلان نقطة تحول رئيسية فى الصراع العربى الإسرائيلى. وعندما انعقد مؤتمر القمة العربى الثانى فى الإسكندرية يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٤ وبحضور الأمير «فيصل» وَلِىّ عهد السعودية (وكان فى ذلك الوقت قد أتم عملية تطويق الملك «سعود» تمهيداً لعزله، ثم تَوَجَّه إلى الإسكندرية يحضر القمة العربية الثانية نائباً عن الملك، ليكون ذلك إعلاناً صامتاً لكل العرب، ولكل الدول أن السُلطة فى المملكة قد إنتقلت رسمياً إليه رغم أن أخاه الأكبر كان مايزال رسمياً جالساً على العرش) ـ بدا ذلك فى الوثائق الإسرائيلية ـ على الأقل ـ مُوحياً بأن العرب «ربما» كانوا على وشك ترتيب أولوياتهم وتسوية خلافاتهم تمهيداً لتوحيد جهودهم، ونتيجة ذلك أن إمكانيات العمل العسكرى ضدَّ إسرائيل إتسعت واستحوذت على الجزء الأكبر من وقت المؤتمر (وكانت القيادة السورية لحزب البعث يومها هى قائدة تصعيد النبرة العسكرية فيما صَدَر عن المؤتمر). وكذلك

فإن البيان النهائى له أشار إلى «أهمية تحرير فلسطين من الإستعمار الصهيونى».

ولم يكتف. بـ «التأكيد على مهام حماية مشروعات المياه العربية».
ويظهر فى الوثائق الإسرائيلية أن مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسته العادية رأى تقديم مُذكرة إلى مجلس الأمن تُلفت نظره إلى «أن ثلاث عشرة دولة عضواً فى الأمم المتحدة إتخذت قراراً بأن تمحو من الوجود دولة أخرى عضو فى الأمم المتحدة وتلك مخالفة خطيرة لميثاق الأمم المتحدة ترفضها إسرائيل، وتُعتبر رفضها واجباً تلقيه عليها مبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

ثم إجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلى على هيئة «لجنة أمن» لبحث الموقف (يوم ١٢ مارس ١٩٦٤)، وتعددت الآراء، ولكنها كانت جميعاً تسابقاً إلى نوعٍ من المواجهة - كما تُصَوِّر الوثائق.

كان رأى «ليفى أشكول» رئيس الوزراء أن الموقف العربى تحول بسرعة من بيانات جوفاء إلى خطط عملية وراءها مشروعات وقوات وأسلحة وأموال، وذلك تحوُّلٌ لايمكن أن تسكت عليه إسرائيل.

ووضع «ديان» النقط على الحروف أكثر قائلا: «إن هذه المشروعات لا يوقفها إجراء أقل من الحرب الشاملة»

وطلب «رابين» (رئيس الأركان) إذناً بشن غارات جوية متواصلة على مواقع المشروعات العربية، وخصوصاً على حشد كبير من المعِدَّات الهندسية يتجمع «الآن» وراء الحدود السوريا. والغريب أن الوثائق الإسرائيلية كان فيها ما يُطمئن إسرائيل. بالحقائق العملية. إلى أن قلقها من بيانات القمة العربية مُبالغ فيه، إذ تشير الوثائق وتؤكد الشهادات أن الملك «حسين» ملك الأردن غادر الإسكندرية بعد مؤتمر القمه الثانى قاصداً باريس فى زيارة عَمَل قصيرة،يلتقى فيها بمسئولين فرنسيين بينهم الرئيس «شارل ديجول» ورئيس وزرائه «چورج بومبيدو» ووزير خارجيته «كوف دى مورخيل» لكن الملك فى

حقيقة الأمر كان على مَوعِدٍ مع «جولد مائير» وزيرة الخارجية الإسرائيلية.

وبشهاده الملك «حسين» مُسجلة بصوته أمام الدكتور «آخى شلايم» فإن الملك تحدث عن لقائه بـ «جولدا مائير» قائلا:

«لقد كان إجتماعاً طيباً. وبحق فإنه إجتماع كَسّرنا فيه كل الثلوج حتى يعرف بعضنا البعض عن قُرب، ولقد تحدثنا عن أحلامنا وآمالنا أن نرى أبناءنا وأحفادنا يعيشون فى الإقليم عهداً من السلام. وقد قلت لها أننى واثق أنه سوف يجئ يوم نلقى فيه جميعاً أسلحتنا ونضع تمثالاً للسلام نقيمه فى القدس ليُعَبِّر عن رفضنا لصراع عقيم».

ولم يقل الملك أكثر من ذلك، لكن وثائق إسرائيلية أخرى تُظهِر أن هذا الإجتماع مع «جولدا مائير» كان بداية لإتفاقيات تعاون بين المخابرات المدنية والعسكرية فى البلدين، تضمن ضمن تَعَهُّدات أخرى - أن تتولى المخابرات الإسرائيلية مُتابعة أعداء الملك داخل المملكة وخارجها وإبلاغه بما لديها من معلومات تمس أمنه وأمن العرش وتساعده على إفشال خططها العدائية. وقد أضيف إلى ذلك إتفاق «جنتلمان» بأن الملك مهما كان من أمر مشروعات تحويل مياه الأردن المقررة فى بلاده.. لن يتجاوز حصته المقررة من مياه الأردن طبقاً لمشروع «جونستون»

وكان مشروع «جونستون» واحداً من المشروعات التى قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية إبتداء من سنة ١٩٥٠ - بدعوى الرغبة فى المساعدة على حَلّ مشاكل الشرق الأوسط وفتح الفُرَص لتنميته، وكان أولها ما عُرِفَ باسم مشروع «كلاب» الذى يسمح بترحيل اللاجئين الفلسطينين المشردين بعد حرب فلسطين. وإعادة توطينهم فى سيناء وقد عرضه الدبلوماسى الأمريكى المكلف به وهو المستر «إدوارد كلاب» ورفضته مصر فور تقديمه فى العصر الملكى وخصوصاً أن بريطانيا لم تكن مُتحَمِّسة له لأنه كما هو واضح فى

الوثائق البريطانية - كان يخلق أوضاعاً قلقة وراء ظهر القاعدة البريطانية فى قناة السويس ذلك الوقت. وكان مشروع «جونستون» هو الثانى بين المشروعات الأمريكية. وكان هَدَفه تعاوُن دول المشرق العربى.

وبالذات سوريا ولبنان والأردن، وإسرائيل بالطبع لإقتسام مياه نهر الأردن وشبكة موارده المائية بغرض التوسع فى الإعمار. «تحضيراً لمناخ السلام» وكان لإسرائيل النصيب الأوفر من مياه الأردن طبقاً لهذا المشروع. ولم تقبل الدول العربية بمشروع «جونستون». لكن إسرائيل بدأت فى تخطيط وتنفيذ سياستها المائية على أساسه.

وتشير وثيقة أخرى إلى أن الملك «حسين» فى ذلك الإجتماع مع «جولدا مائير» طلب سلاحاً من إسرائيل وحين سألته وزيرة الخارجية الإسرائيلية عما إذا لم يكن ماتعطيه له الولايات المتحدة.. وآخره صفقة دبابات يكفى؟ كان ردّ الملك «حسين» بما مؤداه «أن الإتفاق العسكرى الذى حصلت به مملكته على ثمانين دبابة أمريكية يرافقه تعهد مكتوب وموقع منه شخصياً بأن «الحكومة الأردنية لايحق لها إستعمال هذه الدبابات فى الضفة الغربية «!».

واللافت للنظر أن هذا الحوار بين الملك «حسين» وبين وزيرة خارجية إسرائيل وَرَدَ بألفاظه تقريبا ويُنشر فى دراسات جادة: دراسة «شاهام» عمق «تاريخ نصف القرن الأول من حياة إسرائيل» (صفحة ٢١٥) - وتكرر نشره مرة أخرى فى دراسة الدكتور «آفى شلايم» (صفحة ٢٢٨)!

ويتصل بذلك ويلفت النظر أكثر ما ورد فى المذكرة النهائية التى قدمها الجنرال «إيلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية فى السنوات من ١٩٦٩ وحتى سنة ١٩٧٣ - إلى الكنيست الإسرائيلى فى رده على تقرير لجنة التحقيق الخاصة برئاسة رئيس المحكمة العليا القاضى «أجلانات» وذلك أنه فى صفحة ١٣٦ من «الترجمة العربية المحدودة» لهذه المذكرة الاضافيه كتب

مايلى بالنص.

«لسنوات طويلة كنا نعقد بين الحين والحين إجتماعات منتظمة مع شخص رفيع المستوى وذى مكانة مُحترمة فى منطقتنا، وسوف أسميه هنا «المشار إليه» (الرجل المرموق). وفى الحقيقة فإنه لم يكن يعطينا معلومات بالمعنى المعروف للكلمه، ولكنه بسبب مكانته الرفيعة كان مصدراً مستمراً لمتابعة التوجهات والنوايا على المستويين السياسى والأمنى. وكانت ثقتنا فيه عالية بسبب مكانته الرفيعة، وكان مصدَراً حيوياً لزعماء إسرائيل الذين يهمهم إيجاد سُبُل للتفاهم والتعايش مع العرب المحيطين بإسرائيل «ومع أن الجنرال «إيلى زائيرا» اخفى اسم المصور العربى الرفيع المستوى ورَمَزَ إليه فى كلامه عنه «صفحة ١٣٦ من الترجمة العربية للتقرير» فإن موير المخابرات العسكرية السابق على صفحتى ١٤٠، ١٤٤ قام بتسميته صراحة بصفته «الملك حسين» وكان ذلك بالإحالة إلى شهادة السيدة «جولدا مائير» أمام لجنة «أجرانات» وبخصوص لقاءاتها مع مَلِك الأردن أثناء رئاستها للوزارة، وقبل أيام من حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

وكان هذا اللقاء بين الملِك «حسين» وبين جولدا مائير قبل أيام من حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ مَوضع أخذ ورَدّ فى تحقيقات لجنة «أجرانات» وداعيه إتهام «جولدا مائير» بأنها لم تأخذ جَدّاً بدرجة كافية تحذيرات الملِك «حسين» عن إستعداد مصر وسوريا لُشن حرب على إسرائيل فى ظرف أسابيع، ولو أنها أخذتها جُدّاً لما كانت مفاجاة قيام الحرب ظهر يوم ٦ أكتوبر المجيد ١٩٧٣.

وفيما أورده الجنرال «زائيرا» فإن عدداً محدوداً من صنّاع القرار فى إسرائيل (رئيس الوزراء، ووزير الدفاع ورئيس هيئة أركان الحرب، ومدير المخابرات العسكرية ورئيس الـ «موساد») كانوا يعقدون جلسات مُنتظمة مع

الملك «حسين» تتم فى أماكن مؤمّنة مُختارة على جانبى الحدود، وفيها يسمعون من الملك «حسين» تقييما عاماً لرؤيته للأحوال، ثم يقومون بعد ذلك بتوجيه أسئلة مُحددة إليه، وكان الملك يجيب: (مُعتبراً أن ذلك داخل فى نطاق التنسيق الأمنى المتفق عليه مع إسرائيل)!

• خبايا

كان مؤتمر القمة العربى الثالث ـ فى الدار البيضاء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٦٥ ـ هو آخر سلسلة «القِممَ» في الفترة التى سبقت معركة يونيو ١٩٦٧، وربما أن هذا المؤتمر كان الأخطر فى السلسلة رغم أنه كان الأقل جُديَّة بينها!

وبشكل ما فإن الوثائق الإسرائيلية ـ فى حدود ما رأيت وقرآت ـ تَتَجَنَّب الإشارة إلى هذا المؤتمر بالتفصيل وكأنها تُحاذر الإقتراب منه رغم أن أجهزة الأمن الإسرائيليه كلها وأولها الـ «موساد» كانت موجودة فى قاعة المؤتمر مُراقِبة لما يجرى فيه ومُستمِعة لمناقشاته ومُساجلاته وقد وَصَلت أحياناً إلى درجة المشادة!

وكنت قد نَشَرتُ ـ والحديث للأستاذ/ هيكل

(فى عدد «وجهات نظر» ـ أكتوبر ١٩٩٩) تفاصيل عن هذه الواقعة الخطيرة فى مقال لهذه المجلة إستندت فيه إلى تصريحات وتقارير فى الصحافة الإسرائيلية فى رثاء الملك «الحسن» وتكريمه ـ عندما ذَهَبَ إلى رحاب الله.

وكان بين ما نَشَرتُه (نقلاً عن هذه التصريحات والتقارير فى الصحافة الإسرائيلية) سماح الملك «الحسن» لجهاز الـ «موساد» الإسرائيلى بتركيب ميكروفونات تَسمَع وعدَسات ترى كل شىء داخل قاعات إجتماع القمة العربية فى الرباط ـ لكننى حتى بعد النشر ظللت حائراً فى الطريقة التى

أمكن بها إتمام هذه المهمة بنجاح، ودون أن يلحظها أحد من المدنيين أو العسكريين المغاربة من خارج الدائرة الضيقة التى تحيط بالملك «الحسن»، ثم أن تتواصل هذه المهمّة من أول المؤتمر حتى نهايته. دون مُقاطعة؟!

لكنه من يوم أن نَشرت (عَدَد «وجهات نظر» أكتوبر سنة ١٩٩٩) وحتى الآن (نوفمبر ٢٠٠٠) أتيح لى أن أعرف ماينهى الحيرة ويبطل سؤالها.

والحقيقة أن الخطة التى إعتمدت بالفعل لتمكين الـ «موساد» من المتابعة بالصُورة والصوت، وحتى بالإشارة والإيماءة. لمؤتمر عربى على مستوى القمة كانت خطة بالغة الذكاء. شديدة البساطة.

السلام المستحيل

● مفاتيح

قراءة الوثائق الإسرائيلية تجربة مفيدة ومثيرة وهى فى نفس اللحظة تجربة مُرهِقة ومُحزنة خصوصاً عندما تَدخُل الحوادث إلى ذلك المنحَنى المتجه مباشرة إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧.

ويستحق الملاحظة أن أى قارىء للوثائق الإسرائيلية تطالعه أثناء القراءة علامات وإشارات دالة ولافتة للنظر. داعية لإطالة الفكر. ويخطر على بالى أن هذه العلامات والإشارات الدالة تستحق الوقوف أمامها قبل الدخول فى تَسلسلُ التطورات والوقائع، والسبب أن ذلك قد يُوفر نوعاً من «المفتاح» لقراءة خريطة ما جرى منذ بداية سنة ١٩٦٧ وحتى قُرب منتصفها (فى يونيو). وبمقدار ما تزن مفاتيح الخريطة الطبيعية تظهر المساحات، والمسافات، وتقاطعات الطُرق ومواقع المدن، وتضاريس الأرض: الزراعة بألوان خضراء، والصحارى بألوان صفراء، والجبال وقِمَمها وسفوحها بألوان بنية متدرجه من الثقيل إلى الخفيف فإن الخريطة السياسية لها نفس الكفاءة على الكشف والإبانة إذا أمكن تحديد الرموز بما يجعلها مُعبرة بأمانة

عن النوايا والخطط، والوقائع، والتصرفات والإحتمالات بما فيها آمال تتحقق أو آمال تخيب! ومفتاح قراءة الخريطة السياسية لما جرى على الطريق إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧م.

وكما هو مكشوف ومَقروء صراحة، أو ما هو محسوس وملموس ضمناً . يرسم مجموعة من العَلامات والإشارات الدالة واللافتة تملك من الدقة ما يكاد ينقلها من رسَم بالقلم والريشة إلى صورة بالفيلم والكاميرا لا تكتفى بتثبيت لوحة طبيعة، وإنما تمسك أيضا - وهذه ميزة الفيلم والكاميرا - بلحظة أو لحظات من الحياة يتحد فيها المكان والزمان.

ومُجمل العلامات والإشارات التى تقول بها خريطة الطبيعة وخريطة السياسة خريطة المكان وخريطة الزمان. كما أطلّ عليها صانع القرار الإسرائيلى - وكما يتبدى من ملفاته وأوراقه - تُنبىء بما يلى:

١ - أن العرب أضعفوا أنفسهم بأكثر مما أضعَفتهُم قوة إسرائيل سنة ١٩٦٧، وأن التصَدُّع بدأ فى عقول الناس قبل أن تتصدع جبهات القتال. وكان ساسة إسرائيل وجنرالاتها أوّل من ذُهِل لما جرى على الناحية العربية من الخطوط، ولم يكن بينهم من تَوَقّعه على الأقل بهذه السرعة وبهذه السهولة. ولأيام بعد إنتهاء معارك الأيام الستة (٥ - ١١ يونيو ١٩٦٧) فإن قادة الحكومة الإسرائيلية وقُوّاد الجيش الإسرائيلى ظلوا جميعاً غير قادرين على إستيعاب حجم ما تحقق لهم وعندما أفاقوا من «صَدمة النصر» - إذا جاز التعبير» فقد هالهم أن «إنتصارهم أضخم من أن يكون حقيقياً . وكان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى الجنرال «إسحاق رابين». أول من سَجَّلَ فى محاضر مجلس الوزراء تقديره للموقف فى جلسة بتاريخ يوم الأحد ١١ يونيو ١٩٦٧. بقوله «إننى اشعر بالحزن رغم ذروة الفرح التى نعيشها لأنى أعتقد بأمانة أن ما حصلنا عليه جاء أكثر مما أردناه، واعتقادى أنه ليس أمامنا غير إعادته أو مُعظمه إلى أصحابه

بشروط معقولة والسبب «الحاكم» أننا لا نستطيع ولا نقدر على الإحتفاظ به كله مقبولة!»

٢ ـ أن مؤسسة الأمن ـ وهى صانع القرار الحقيقى فى إسرائيل ـ كانت على وعى كامل بواقع أن الخلافات والصراعات بين الساسة العرب نوع آخر من الخلافات الواقعة بين الساسة الإسرائيليين وفى حين أن رجلين مثل «ليفى أشكول» (رئيس الوزراء الإسرائيلى سنة ١٩٦٧) و «دافيد بن جوريون» (مؤسس الدولة وأول رئيس لوزارئها) يستطيعان الإمساك بتلابيب بعضهما وحتى النهاية دون أن يؤثر ذلك على إستراتيجية الدولة اليهودية.. فإن خلافات الساسة العرب تتحول بطبائع السُلطة فى العالم العربى إلى نزاعات ذول تصل بالمختلفين إذا أمسكو بتلابيب بعضهم إلى درجة الحرب المسلحة (الحرب الأهلية ـ عربية عربية)

كما حدث بين «جمال عبد الناصر» من ناحية والملك «سعود» ثم الملك «فيصل» من ناحية أخرى بسبب الثورة فى اليمن (١٩٦٢.

وكانت مصر تؤيدها والسعودية تُعاديها، ثم أصبح الخلاف بين الطرفين تحريضا وسلاحاً ودماً وخزائن مال بغير حساب، وأطرافاً خارجية تتدخل فى الشأن العربى أو تُدعَى باستماته إلى التدخل فيه!

ولقد كان تناقض الأفكار والمبادىء والرؤى بين الساسة العرب هو الذى قاد مباشرة إلى إتصال على مستوى القمة بين العرب وإسرائيل (هو الأول من نوعه بعد إغتيال الملك «عبد الله» ملك الأردن فى القدس سنة ١٩٥١). ثم إنه فى إطار هذا التناقض ونتيجة له فإن الملك «حسين» قدَّمَ نفسه فى لندن ممثلاً لجبهة أوسع من الأردن (على حَدّ ما قال بنفسه للزعيم البرلمانى المحافظ «جوليان إيمرى» عندما إلتقى به فى بيته فى «إيتون سكوير») وهى جبهة طلبت معاونة إسرائيل فى حرب اليمن لمهمة عاجلة هى إسقاط مُعِدَّات ومُؤَن على مواقع المرتزقة الأجانب الذين يحاربون مع الملكيين فى جبال

اليمن) وقد إستجابت إسرائيل فعلاً وقامت طائراتها بالمهمة ثلاث مرات، ثم توقفت العملية لأن إنكشاف أمرها إذا وقع مُحرج لأصحابه فوق أى حد وقد رتب صانع القرار الإسرائيلى على ما استخلصَهُ طُرُقاً وأساليب فى إدارة الصراع مع العرب وَصَلَ مفعولها إلى المساس بالمحرم أو المقدس العربى، أو شيء شديد القرب من ذلك!

٣ - نقطة أخرى لاحظتها مؤسسة الأمن الإسرائيلية وهى تتصل بالجيوش العربية ومُلخّص هذه النقطة (كما يتبدى فى تحليلات وتقديرات مُستفيضة تملأ الوثائق الإسرائيلية) أن الجيوش العربية لا تربطها بمهامها نظرية أمن قومى تَرسخت على المستوى الوطنى بالجغرافيا وبالتاريخ، وإنما رباط هذه الجيوش ألصق بحقائق الأمور مع سُلطة الدولة. وسُلطة الدولة فى العالم العربى: تقليدية أو غير تقليدية (ثورية مثلاً أو إنقلابية موروثة) هى سُلطة أمر واقع - أى أنها سُلطة فرد حاكم أو مجموعة أفراد يشاركون إلى جواره بنصيب أو آخر فى صُنع القرار، وذلك لا يعطى الجيوش العربية ثقتها فى قرار الحرب عندما تتخذه السُلطة الحاكمة، لأن قرار الحرب فى هذه الحالة. وفى غيّاب نظرية أمن قومى أفراد - وكلهم - فرداً أو مجموعة أفراد - يَصعب إعتباره مرجعية نهائية لمحددات هذا الأمن القومى. وذلك فى التقدير الإسرائيلى يجعل الجيوش العربية مُتحمسة للقتال عندما تدعوها الدواعى لممارسة دورها المرسوم فى ميادينه، لكنها وهى تفعله (وفى الظروف العربية الراهنة) تُقبل عليه مُستجيبة لأمر أو لأجواء أكثر منها مُستجيبة ليقين تَرسَّخَ بالجغرافيا وبالتاريخ، وهنا فإن هناك مسافة بين الحماسة وبين اليقين. وهذه المسافة (فى الحسابات الإسرائيلية) - تؤثر على كثافة وعُمق الجهد العسكرى للجيوش العربية، وعلى مدى تواصُل هذا الجهد إلى المدى الذى تطلبه الضرورات.

٤ - إن صانع القرار العربى - من منظور الملفات الإسرائيلية - «يقترب من قرار الحرب المسلحة مُتردداً. وأحياناً مُضطراً» والسبب أن صانع القرار العربى ليس واثقاً من أن لديه القدرة العسكرية القادرة. أو الإحتياطى الإستراتيجى الكافى، أو المدد الدولى المضمون والمؤكد - فى حين أن صانع القرار الإسرائيلى يملك التعامل بثقة وجرأة مع ظروف مؤدية إلى قرار حرب مُطمئناً إلى أن الأسباب كلها مُتوافرة ومُستعدة فى مواقعها. بمعنى أن صانع القرار الإسرائيلى:

- متأكد من تفوق جيشه فى أى حرب مع العرب (ولذلك فإن حساباته هى كيفية تقليل خسائر المعركة وليس الشك فى نتيجتها).

- وهو عند اللزوم واثقٌ أنه يستطيع إستعماله كل إحتياطيه الإستراتيجى فى ميدان المعركة عارفاً أنه يستطيع تعويض كل خسائره من السلاح ويقدر ما يلزمه (فى حين أن الطرف العربى «يمد ساقه بقد لحافه» كما يقولون، وفى نفس الوقت فليس هناك ما يَضمَن أنه لديه من الأصل «لحاف».

- ثم إنه بعلاقات إستراتيجية دولية خصوصاً مع الولايات المتحدة لديه اليقين بأن هناك حداً أنى مضموناً يستحيل أن تسوء بعده أى ظروف!. بينما الطرف العربى خائف فى دخيله نفسه من أنه إذا وقع المحظور مُعَرَّض للسقوط فى فراغ بغير قاع.

● وكان ذلك ما تأكدت منه إسرائيل واختَبرَته عملياً فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣. فحين خسرت ١٠٤ طائرات وأربعمائة دبابة فى الأيام الثلاثة الأولى من القتال (على الجبهة المصرية والجبهة السورية) - لم تتردد القيادة السياسية الإسرائيلية فى الأمر بفتح مخازن الإحتياطى الإستراتيجى كى يخرج ما فيها على الفور إلى التشكيلات الإسرائيلية المقاتلة تعويضاً ومدداً وحدث فى بعض المرات أن طائرات الجسر الجوى الأمريكى عبرت الأطلنطى وعَبَرَت البحر وأنزلت بعض سلاحها مباشرة إلى المضايق تشارك فى معركة

«بالوظة» يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣. لكن الحقيقة أن معظم ما حمله الجسر الجوى الأمريكى دخل إلى المخازن ليُعَوِّض الإحتياطى الذى إستعملته إسرائيل منذ اليوم الرابع للمعركة، مُطمئنة إلى أن إستعمالها له فجوة ساعات وأيام قبل أن يتم إستعواضه، ليعود احتياطيها الإستراتيجى إلى مستواه المطلوب والمقرَّر فى الجيش الإسرائيلى.

● ويتصل بذلك وفى مُقابله أن القيادة الإسرائيلية تعرف (بشهادة الأوراق والملفات) أن العرب فى حروبهم يعتمدون على سلاح من الإتحاد السوفيتى (ولم يكن لديهم غيره يستطيع ولو نظرياً أن يقاتل إسرائيل) لكن العرب الذين يعتمدون على السلاح السوفيتى لم يكونوا فى أى وقت من الأوقات على علاقة إستراتيجية ثابتة مع الإتحاد السوفيتى، بل إنهم حرصوا أن يجعلوا علاقاتهم بالدولة السوفيتية علاقة «مشترى السلاح» بـ «تاجر السلاح» وهذا نوع من العلاقة مُرتبك وأحياناً مهين للأطراف. فى حين أن صانع القرار الإسرائيلى كان ينام راضياً على رباط وثيق مع الولايات المتحدة يشتمل على تعَهُد يجعلها ملتزمة بأن تضمن للسلاح الإسرائيلى تفوقاً على سلاح كل الدول العربية مُجتمعة.

وبسبب الخلافات بين صناع القرار - وتحَوُّل هذه الخلافات بطبائع السلطة العربية إلى نزاعات دُوَل. فإن صانع القرار الإسرائيلى يملك ميزة إضافية هامشية لكنها هائلة. مؤداها أن إسرائيل لن تواجه كل العرب فى ميادين قتال مهما قيل أو يقال، ومهما كان أو يكون، وإنما هى على أسوأ الإحتمالات سوف تواجه دولة عربية واحدة، أو دولتين على أكثر تقدير.

- ويتداعى من هنا على نحو ما أن مسئول الحرب النفسية فى الجيش الإسرائيلى فى ظروف سنة ١٩٦٧، وهو الجنرال «يوشفاط هاركابى» كان له رأى إستطاع ترويجه فى أوساط صانع القرار الإسرائيلى، مؤداه «أن العرب - كل العرب - كفوا عن تجربة الحرب من قرون، وعلى الأقل عَهدوا بالمسئولية

عن أمنهم إلى المماليك، ثم إلى العثمانين، وتلك حقيقة واقعة ظلت قائمة حتى زَمَن قريب، وضمن آراء «هاركابى» أن العَرَب عرفوا فى تاريخهم ألواناً من المقاومة ضد الإستعمار والإحتلال الأجنبى، لكن تلك تجربة أخرى تختلف عن تجربة الحرب كما عاشتها الشعوب الأوروبية وكما عرفتها وعاشتها لندن وباريس وفيينا وبرلين مثلاً. أو غيرها من حواضر إمبراطوريات عظمى. وعليه فقد كان تقدير الجنرال «هاركابى» أنه «إذا كان مُواطنوا الدولة العبرية يخيفهم نزيف الدم اليهودى، فإن مواطنى الدول العربية يخيفهم سقوط القنابل حتى قبل أن تسيل قطرات الدم....»

ثم يستعرض أستاذنا / محمد حسنين هيكل بعد ذلك ظروف وملابسات ومقدمات حرب ١٩٦٧م.. ليدخل بعد ذلك على مسألة «حدود السلاح».. وكيف أن النصر «الغير طبيعى، فى ١٩٦٧» جعل القادة العسكريين فى إسرائيل يُطلقون العنان لأنفسهم ويتخطى السلاح حدوده.

وحانت ساعة الصفر فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧م.. ويوضح الأستاذ / هيكل فى البداية الخطوط العامة للإستراتيجية الإسرائيلية قبل الدخول فى قضية «حدود السلاح». وحديث الإستراتيجيات له ما بعده.

وتحت عنوان جانبى «إستراتيجيات» كتب الأستاذ / هيكل.

١ . إستراتيجيات

يبدأ الأستاذ / هيكل «.. أشهد أننى اشعر بالحرج إذ أجد نفسى للمرة الرابعة واقفاً أمام الوثائق الإسرائيلية.. وهاجسى أننى ربما أثقلت على قارىء تَفَضّلَ واهتم..

لكن من ناحية أخرى أواجه الشعور بالحرَجَ مُتعللاً بأن «سياحة صيف» فى الوثائق الإسرائيلية و «كتابة خريف وشتاء» عنها ـ لم تكن وقوفاً مع الماضى وذكرياته، وإنما كانت دراسة للمستقبل وإشتراطاته.

ظنى أن معرفة الحقيقة فيما كان. ضرورىّ لفهم ما هو راهن ولفهم ما هو قادم وأنه نادراً فى أى صراع ما تتاح الفرصة لطرف كى يعرف كيف فكر خصيمه ودَبّر؟

وكيف خطط لصراعاته وأدار مواقعها؟ فإذا أتيحت تلك الفرصة لطرف حتى يعرف، ثم يُطابق، ثم يستخلص، ثم يُزَوِّدّ إدراكه بما عرف وطابق واستخلص.

إذن فالحَرَج من طول الوقوف مرفوع، والهواجس - أياً كانت دواعيها غير مُبَرَّرة!

وهذه بطاقة توضيح، أو إعتذار، اسوقها إستغفاراً عن السفر - أو السياحة - مع الوثائق الإسرائيلية، والعودة المتكررة إلى أحاديثها أربعة شهور عبرت عليها الفصول صيفاً وخريفاً وشتاءً!

ولأن هذا هو الحديث الرابع فى قراءة الوثائق الإسرائيلية. ولأنه الحديث الواصل بروايته مباشرة إلى ذلك الموعد مع الحرب فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ - فقد يكون مناسباً تلخيص وتركيز الرؤى الأساسية للصراع كما بَدَت للقيادات الإسرائيلية وكما تبدت فى الوثائق الإسرائيلية. ملفاً بعد مَلَف، وورقة بعد وَرَقة، وتأشيرة بعد تأشيرة!

وإبتداء، وتحديداً وبقصد التوصيف الذى يضمن قدراً لازماً من توافق الآراء مع مسار الحديث. ويَتَوقى العودة إلى تكراره مرة أخرى بالتنازع مع بدهيات - فقد يمكن الاتفاق على مبدأ أن كل طرف مُؤثر فى أى صراع يمارس بإرادته وفى فعله ثلاثة مستويات من السياسة:

مستوى الإستراتيجية العليا - أى (وبصفة عامة وإجمالية) الهدف النهائى الذى تطلبه الإرادة ويحققه الفعل.

- ثم مستوى الإستراتيجية - أى الخطة أو الخطط القادرة على الطلب وتحقيقه.

- ثم مستوى التاكتيك - أى العمليات المباشرة التى تعتمدها الخطة أو الخطط فى حركتها نحو طلبها وتحقيقه.

فإذا أمكن الإيقاف على المبتدى وجرى تطبيق ذلك التوصيف ومقتضياته على الحالة الإسرائيلية فإن الصورة تظهر مبينة وشديدة الوضوح فى الوثائق:

على مستوى الإستراتيجية العليا - تطلب السياسة الإسرائيلية أن تستولى الدولة اليهودية بـ «الحق» الأسطورى بالسلاح (من الرصاصة إلى القنبلة الذرية) وبالمال (من شراء الأراضى إلى طرد ملاكها). وبالنفوذ الدولى «من برلين وموسكو إلى لندن ونيويورك).

والدولة اليهودية بعد أن تقوم سوف تفهم بعمق أنه وإن كانت حدودها الرسمية هى كامل أرض إسرائيل «كل فلسطين» فإن حدودها الفعلية لابد أن تنتشر فى كل منطقة الشام التاريخية، وإمكاناتها الإنسانية والثقافية، ومواردها الطبيعية والإقتصادية. وبدون ذلك الإنتشار فإن الدولة اليهودية تصبح قلعة مُحاصرة وليست مشروعاً تتأكد حيويته بإنتشار قوته ونفاذ سلطانه.

على مستوى الإستراتيجية فإن مطالب الإستراتيجية العليا لدولة إسرائيل عزل الشام التاريخى عن الواديين الكبيرين فى الشرق والغرب، فى الشرق وادى «الفرات» «العراق» وفى الغرب وادى النيل «مصر». وذلك لأنه فى هذين الواديين تُوجد إمكانيات كبيرة، وعُمق واسع وعرض يمثل إمتداد للشام فسيحاً بالجغرافيا وبالتاريخ معاً. ومدداً للقوة يصعب أن ينضب.

وكان نزوع العراق أو مصر إلى الشام هو مُتحرك تاريخ المنطقة فى مراحل إستقلالها على أنه فى بعض الأحيان تحول النزوع من وادى الفرات إلى وادى النيل إلى نزاع بين الواديين مع ملاحظة أن الشام لم يكن فراغاً بين

الواديين. وإنما كان الشام طرفاً حياً نشيطاً فاعلاً يميل إلى هذه الناحية أو يميل إلى تلك، ومع ميله على هذه الناحية أو تلك تتحرك موازين القوة فى المنطقة.

وفى العصور الحديثة ـ وفى واقع الأمر منذ عهد «محمد على» ـ فإن نزوع مصر نحو الشام زاد ـ كما أن ميل الشام إلى مصر لاقاه، وكانت النتيجة فوراناً فى الإقليم شديد تواصلت تأثيراته من أيام «محمد على» إلى أيام «جمال عبد الناصر».

وعلى طول هذه المساحة من الزمن فإن كل قوة طلبت السيطرة على المنطقة أو فيها ـ إعتمدت أو كان عليها أن تعتمد إستراتيجية عزل الشام عن مصر أو عزل مصر عن الشام.

وبما أن المطلوب كان الحصول على منطقة الشام صحيحه وسليمة فإن الوسيلة الإستراتيجية المثالية ـ حَدَّدَت نفسها فى مطلب عزل مصر، فإذا إستحال عزلها توجب ضربها.

وكان صميم المشكلة أن حركة مصر فى حالة يقظتها عائدة بإستمرار إلى الشام، فمن هناك تلقت الحضارة المصرية بعد إنطلاقاتها الفرعونية الأولى كل المؤثرات التى صاغت شخصياتها فى التاريخ الوسيط والحديث. فمن ناحية الشام أو عن طريقه جاءت إلى مصر الديانتان الرئيسيتان فيها المسيحية والإسلام ومن ناحية جاءتها لغتها العربية بكل حمولاتها الثقافية والحضارية ـ الشرعية والقانونية ـ الأدبية والفنية.

ثم إن هناك فى الشام تركزت ضرورات الأمن الوطنى والقومى لمصر، فتلك هى البوابة التى جاءت منها الإمبراطوريات الغازية من «قمبيز» الفارسى إلى «سليم» الثانى «العثمانى» إلى «فيكتوريا» البريطانية. ومنها جاءت كل الحملات العسكرية مُتنوعة شعاراتها وأعلامها:

هناك أيضاً أنه فى الشام وحوله تَرامت المصالح التجارية الكبرى سواء تلك المسافرة جيئةً وذهاباً على طريق الحرير من أقصى الشرق إلى حلب - أو تلك المسافرة جيئةً وذهاباً على طريق السويس من أقصى الشمال إلى بومباى - وكانت تلك هى طُرُق التجارة القديمة. وزاد عليها فى الأزمنة الحديثة تَفَجُّر البترول وكذلك تحولت المنطقة إلى حقول لإنتاجه أو ممرات ومعابر لنقله.

وعلى مستوى التاكتيك الإسرائيلى - أى مستوى العمليات - وترتيباً على كل ما سَبَق فإن الجبهة المصرية فى سيناء أصبح مُحتماً عليها أن تكون الجبهة التى تتلقى أول الضربات وأوجع الضربات. حتى تتوقى الخطر وتخاف. أو تُصاب بالعاهة إذا هى أقدمت، أو تُعَرِّض نفسها للقتل إذا أصَرَّت وعانَدتْ.

والشاهد أن ذلك كان الأساس الذى بنى عليه الجنرال «أهارون ياريف» مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية صيغته البليغة فى شأن أى عَمَل عسكرى إسرائيلى مُحتمل.

فى الشام: صيد بالشبكة لا تقتل ولا تُسيل دَماً.

فى مصر: صيد بالـ «هاربون» «الرمح المقذوف» يَجرَح أو يقتل.

يمكن القول إنه لعدة قرون فإن حروب السيطرة ضدّ شعوب آسيا وأفريقيا وغيرها كانت ولا تزال تجملها صيغة تلخص المطلوب بأنه: الفصل بين الجغرافيا والتاريخ - أى الفصل بين الأرض والبَشَر داخل الوطن المستهدف بالحرب - فإذا وَقع ذلك فإن كل الأهداف تتحقق لطلابها تلقائياً - واحداً بعد الآخر.

لأنه إذا إنفصلت الأرض (الجغرافيا) عن التاريخ سقطت مناعتها. فإذا كانت أهميتها الإستراتيجية سابقة على غيرها من المزايا. فُتحت لإحتلال الجيوش. وإذا سبقت أهميتها الإقتصادية - انفتحت لهجرة المستوطنين أو

لسيطرة البنوك.

ثم إن الناس (التاريخ) إذا انفصلوا عن الجغرافيا سقطوا فى الضياع وتَمَّ بسهولة إخضاعهم بالجيوش، أو جرَى - ولو بصعوبة - تطويعهم بأنواع من الإستلاب - أهمها إستلاب الهوية.

وكانت تلك بالضبط. وكما يشهد كل ملف وكل ورقة وكل سطر - فيما أُتيح لغيرى - ولى - من الوثائق الإسرائيلية - هى إستراتيجية الدولة اليهودية:

الفصل بين الجغرافيا والتاريخ داخل فلسطين - لتخلو الأراضى ويتشرَّد السكان - وتثبت قوة الإحتلال الجديد ويهتز رباط الهوية القديمة.

والفصل بين الجغرافيا والتاريخ حول فلسطين لينقسم العالم العربى على تباعد قارتين آسيا وافريقيا - ويغيب التاريخ منفياً عن الوعى. ولعل ذلك كان بالضبط - أيضاً - هو المنطق الذى أملى على إسرائيل سياسة الصيد بالشبكة فى الشام، والصيد بال «هاربون» (الرُّمح المقذوف) فى مصر.

هناك - فى الشام - لم تكن ضرورات الفصل بين الجغرافيا والتاريخ - تقتضى قتلاً ودَماً. وإنما إعادة رسم خريطة (طرد من فلسطين وانتشار حولها)

وهنا - فى مصر - كانت ضرورات الفصل بين الأرض والناس - تقتضى قتلاً ودَماً - لأنه مع إستحالة رسم خرائط جديدة، فإنى خطوط الحدود ينبغى تثبيتها بحيث لا يكون وراء خطوط الحدود خروج للإثنين الا للمكان (الجغرافيا) ولا للبشر (التاريخ) وربما الفشل فى الفصل بين الجغرافيا والتاريخ فى الحالة العربية هو الذى جَعَلَ نتائج الحرب فى يونيو سنة ١٩٦٧ - نجاحاً كبيراً دون أن يكون إنتصاراً كبيراً وبكل الفوارق الواسعة بين النجاح (Success) وبين النصر (victory).

دلك أن طرفاً من الأطراف يستطيع أن ينجح فى «فعل» العرب - لكن

ذلك لا يضمن له معنى النصر.

لأن «النجاح» شيئ و «النصر» شيئ آخر، وليس من الضرورى أن يتطابق الشيئان!

ولعل المسئول الأول عن الفشل الإسرائيلى فى الفصل بين الجغرافيا والتاريخ بما أدى إلى تنازل «الفعل» الإسرائيلى من «نصر» إلى «نجاح» سنة ١٩٦٧. هو حماقة القوة وغرورها مما إعترى العسكريين الإسرائيليين فى ذروة معارك سنة ١٩٦٧ - فإذا هم ينسون الإستراتيجية العليا للدولة اليهودية كما وضعها المؤسسون الأول (وعلى رأسهم «دافيد بن جوريون») - وينساقون وراء خيالات زَيّفًا لهم وأغراهم على أن قراءة واستقراء الوثائق الإسرائيلية - من يناير إلى يونيو ١٩٦٧ - قادرة أكثر على إيضاح وجلاء ذلك الفارق الهائل بين «النجاح» و«النصر»!...»

وهكذا حلّل أستاذنا / محمد حسين هيكل الإستراتيجيتان الأساسيتان للسياسة الإسرائيلية (الإستراتيجية العليا، والإستراتيجية ثم التكاكتيك.. وصولاً إلى إنسياق القادة الإسرائيلين وراء أوهام «القوة» نظراً لتفوق السلاح.

ومع سباحته فى الوثائق الإسرائيليه نطل على «حدود السلاح».

حدود السلاح !

١ - التاريخ

«... نهاية السفر الطويل والبعيد مع الوثائق الإسرائيلية - تصل بأي مسافر إلي موقعين - كلاهما علي مقربة من الآخر إلي حَدّ التماس» حتي ليكاد الجوار بينهما أن يعطي الأثنين معاً فضاءاً واحداً مكشوفاً لايقطعه فاصل.

● الموقع الأول يبين عليه أنه «لايوجد» الآن حلٌ دائم له اصطلاح علي تسميته مجازاً به «أزمة الشرق الأوسط». أو بـ «الصراع العربي الإسرائيلي» إذا وقع إستعمال تعبير أصلاح لا يحتاج إلي «المجاز» كي يصُك له مصطلحاً!

والسبب أن هذه الأزمة - بصرف النظر عن تسميتها - تنتمي إلي نوع من الأزمات موصول في أساسه بثوابت من الجغرافيا والتاريخ مع ملاحظة.

- أن الجغرافيا ليست خرائط مرسومة من خطوط وألوان - وإنما هي حقائق ناشئة ونامية من إرتباط علي طول الزمان بين أرض لها طبيعتها، وتَبشَر لهم خصائصهم، ومحيط مُتداخل بتضاريسه مع القارات، منطل أو متطلع نحو البحار.

- ثم إن التاريخ ليس «بضاعة» من الممكن «حيازتها» (تركيبها أو شرائها)، وإنما التاريخ حياة تصنع نفسها بنفسها بواسطة العلاقة الخَلاّقة بين الأرض والبشر، وفي عملية حوار خصب لاينقطع بين الاثنين تتحقق نتائجه وآثاره في رُقِيٌ المجتمعات وعُمرانها، وفي أدواتها الحضارية من اللغة والهوية والثقافة والفن - وفي إتساق من القِمَ والتقاليد والأعراف والقوانين تُعَبرّ عن كيانات إنسانية تملك حوافز ودوافع تقدمها وتستشعر موجبات أمنها، ولها فوق الأرض آثارها تَدلُ علي تواصلُ وجودها وتتابع عصور حيويتها - كما أن لها في بطن التراب قبورها شاهداً علي إستمرار حياتها بغير إنقطاع جيلاً بعد جيل، ومن أزلٍ إلي أبد.

● الموقع الثاني يَبين عليه ماهو أخطر - ذلك أنه إذا كان الموقع الأول يُظهر أنه «لايوجد» حَل - فإن الموقع الثاني يبين عليه ان ماكان «صعباً» قبل سنة ١٩٦٧ أصبح مستحيلاً. بعدها، والسبب أن «السلاح» الذي لم يكن من الأصل أداة صالحة لحل «الأزمة» أو حَلّ «الصراع» مع إتصالهما بثوابت الجغرافيا والتاريخ - جري إعتماده في تلك السنة (١٩٦٧) أداة وحيدة للحَل. ويظن أن تفوق السلاح قادر. وترتب علي ذلك أن تفوق السلاح أنساه حدوده فإذا هو يجَور علي الحَيز المخصص له في الإستراتيجية العُليا التي يخدمها، وفي المحُصلّة النهائية فإن غواية التفوق أساءت في حين كاظنها أنها أخلصت وزادت!

وتلك أحياناً كارثة الخطط حين يتَبَدي نجاحها، فإذا هي تَعتَدي علي أهدافها بغير أن تقصد، ثم إذا هي تُحقق النجاح بمعني (success) ولا تُحقق النصر بمعني (victory) - ثم تُواجه الخطط مصائر لم تكن في حساب هؤلاء الذين وضعوها ورأوها «تنجح» أمام عيونهم في مراحل متقدمه من عملية تنفيذها، وإذا هُ يكتشفون أنه برغم «حصول» النجاح فإن النصر «أفلت» منهم ولم يُحقق وَعده أو مَوعدَه مع النجاح!

وهذه ظاهرة تكررت كثيراً في تجارب الأزمات أو الصراعات أو الحروب - علي طول التاريخ الإنساني - وربما أن أشهر وأقرب الأمثلة عليها معروفة في وقائع الحرب العالمية الثانية، وهي حاضرة في الذاكرة الدولية المعاصرة علي كل المستويات المتعارف عليها للفعل السياسي؛ مستوي الإستراتيجية العُليا - ومستوي الإستراتيجية - ومستوي التاكتيك.

ومثلاً وعلي مستوي الإستراتيجية للعُليا - فإن السلاح الألماني تفوق إلي دَرَجَة جعلت من «أوولف هتلر» سيداً علي أوروبا كلها (وكانت تلك إستراتيجيته العُليا). لكن السلاح الألماني تجاوز مايَقدِر السلاح علي تحقيقه مهما بلغ تفوقه - فإذا «هتلر» يَخرُج من أوروبا إلي الشرق نحو الإتحاد السوفيتي يُقدِّر غزوه في أغسطس ١٩٤١ - ثم إذا هو يخَرُج عبر المحيط ليعلن الحرب علي الولايات المتحدة في ديسمبر من نفس السنة. وانتهي النجاح الألماني في إستعمال «السلاح» وتَفَوُّقه إلي هزيمة ألمانيا واستسلامها بلا قيود ولا شرط، ثم إنتهي «هتلر». رغم نجاح سلاحه إلي الإنتحار داخل خَنَدق مبني بالأسمنت جامد وبارد!

ومثلاً وعلي مستوي الإستراتيجية - فإن القائد الألماني الأسطوري «ردويف روميل» وَصَل إلي دَرَجَة الإبداع في «هندسة» أسلوب (تتعاون فيه المدرعات مع الطيران علي توجيه ضربات صاعقة للعَدُو) - ثم ظَنَّ «روميل» أن التفوق في إستعمال «السلاح» (إلي دَرَجة الإبداع) - يَسمَح له بالخروج من حدود ليبيا للسيطرة علي إفريقيا - بجَيشه الذي أطلق عليه وصف «الفيلق الإفريقي» - بادئاً كخطوة أولي بفتح شمال افريقيا بعَرضه - من مضيق جَبَل طارق إلي برزخ وقناة السويس. وفي ذلك نسي «روميل» أن البحر الأبيض المتوسط - علي نفس العُرض - يَمتد حائلاً بينه وبين قيادته وطُرق إمداده في أوروبا ونتيجة غواية «السلاح» فإن الفيلق الإفريقي الذي كانت مُدَرَّعاته تضوي بالخيلاء تحت شمس الصحراء الغربية لمصر - تحول إلي أكوام من

خُردة الحديد مُتناثرة علي طول الطريق الساحلي من العلمين إلي تونس، وانتهي «روميل» نفسه ـ برغم نجاح سلاحه ـ إلي الإنتحار بطلقه مسدس وضعه بيده في أذنه...»

ويستطرد الأستاذ هيكل في سرد الأمثله إلي أن يصل إلي عنوان جانبي.

● كاردوم

غوايه التَفَوق في السلاح ـ كما يكشف كل مَلف وكل ورقة وكل سطر في الوثائق الإسرائيلية ـ أعطت لإسرائيل في حرب سنة ١٩٦٧ نجاحاً هائلاً. لكن جائزة النصر أفلتت بالضبط لنفس السبب وهو أن تجاوز السلاح لذوره ـ جار واعتدي علي أهداف الإستراتيجية العُليا لإسرائيل كما فَكر فيها ووضعها الآباء الأوائل لمشروع الدولة اليهودية.

وفي حين أن حرب سنة ١٩٦٧ إنتهت وقد تصور السلاح الإسرائيلي أنه بتفوقه أخلص وزاد فإن الحقيقة الواقعة من يومها وحتي الآن تُظهر أنه حقق نجاحاً ولم يحقق نصراً.

وبتفصيل أكثر لأننا الآن أمام نقطة جوهرية مما تكشَفَ عند القراءة المتانية للوثائق الإسرائيلية فإن مشروع الدولة اليهودية في فلسطين كان منذ البداية حُلماً يستعصي علي التنفيذ، وكانت تلك الحقيقة ظاهرة للعيان وماثلة أمام الآباء المؤسسين للمشروع.

وكان هؤلاء الآباء المؤسسون يملكون من الذكاء والدهاء ما جعلهم يُدركون أنه إذا كانت هناك فرصة لتنفيذ الحلم المستعصى، فإن «فك» الإستعصاء مَرهون بوضع إستراتيجية عُليا له تتعامل أولاً مع الجغرافيا والتاريخ لأن الموانع الطبيعية هناك وكانت خطة التعامل (مُتماثلة مع مشاريع إستيطانية سبقتها وواكبتها فى القرن التاسع عشر خصوصاً فى أفريقيا) هى

عَزل الجغرافيا عن التاريخ. أى الفصل بين الناس وبين الأرض، وفتح ثغرة ينفذ منها المشروع إلى ميدان معركته.

ومن المفارقات أنه من قبل ١٩٤٨ (قيام إسرائيل) - وبعدها حتى سنة ١٩٦٧ - كان يبدو أن المشروع الصهيونى يُحقق جزءاً مُهماً من إستراتچيته العُليا .....»

وبعد أن استعرضنا مع سياحة الأستاذ / محمد حسنين هيكل فى الوثائق الإسرائيلية.. كل الخطوط العامة للإستراتيچية الإسرائيلية..

سنغوص إلى أعماق أخرى مع شهادات بعض المثقفين والمفكرين المصريين والعرب. فى قضية الصراع العربى والإسرائيلى.

وعلى سبيل المثال - نرى شهادة فى هيئة حوار صحفى للدكتور بطرس غالى وهو بالأساس «محترف» الدبلوماسيه، فهو نجم فى عالم «القفازات الحريرية والجباه العالية».. ومن الغريب أن هذا الرجل الذى هو بالأساس يعتقد الدبلوماسية طريقاً أساسياً.. إلا أننا سنرى وجهة نظر مُخالفة إلى حدٍّ ما.. وأيضاً طارق حجى، والسيد يس.. والمتخصص فى دارسة الصهيونيّة.. الأستاذ / عبد الوهاب المسيرى والحقيقة أن شهاداتهم سواء فى شكل حوارات أو كتب تشكل «موزاييك» متباين الألوان.. فتبرز فى النهاية لوحة كبيرة.. نُطل من خلالها على حقائق الصراع التاريخى والمزمن.. «العربى / الصهيونى»

رؤية فى أعماق الكيان الصهيونى

.قراءة من الموسوعة الصهيونية،

للأستاذ/ عبد الوهاب المسيرى

غياب البعد الطبقى المحدد فأعضاء الهجرة الثانية يختلفون عن أعضاء الهجرة الثالثة ويختلف أعضاء كل الهجرات الأشكنازية عن أعضاء الهجرات من البلاد العربية وبوصول يهود الاتحاد السوفيتى (من دولة اشتراكية غربية) ويهود الفالاشاه (من دولة أثيوبيا وهى ذات طابع قبلى، يصبح من المستحيل تحديد المضمون الطبقى بالطريقة المألوفة وغنى عن القول إن مضمون الصهيونية الطبقى ازداد ترهلاً وتعمية عبر السنين واكتسب لونا «يهوديا» فاقعاً خاصة بعد ظهور الصهيونية العضوية وازداد ضبابيه بعد ظهور الصراعات الاثنية بين الاشكناز من جهة والسفارد واليهود العرب من جهة أخرى وبعد أنقسام النظام الحزبى الاسرائيلى علي أساس إثنى وانضمام اليهود الشرقيين الفقراء الساخطين إلى حزب الليكود الاشكنازى الذى يمثل فيمن يمثل اصحاب رؤوس الأموال ويمكن القول أن

ديناميات التجمع الصهيونى تجعل تبلور شكل طبقى محدد داخله أمرا عسيرا لأنه تجمع مهاجرين (ونازحين) ولأنه فى نهاية الأمر تجمع مفروس فى المنطقة يعتمد على التمويل الخارجى الذى يضعف من بنيته الطبقية ولكن انعدام المضمون الطبقى أو ترهله أو تنوعه أو فشله فى التبلور والتشكل الأمر الذى يجعل التصنيف بالطريقة المألوفة صعبا بل ومستحيلا لا يعنى أن إسرائيل فوق الطبقات أو أنها هبطت علينا من السماء أو أنها ثمرة الميثاق الذى تم عقده بين الرب وشعبه كما يتوهم الصهاينة العضويون أو كما يدعون وإنما يعنى أنه من الضرورى تجاوز السطح حتى يتثنى لنا أدراك خصوصه التشكيل السياسى الصهيونى من الناحية التاريخية والنبوية كى يمكن التوصل إلى المضمون الطبقى الحقيقى فالدولة تجد أن هذه القوة الجديدة تشكل بتأييدها للحرب الباردة والاقتصاد الحر وتعاطفها مع إسرائيل جماعة ضغط قوة تقف فى صفها وتفوق فى أهميتها صهاينة الخارج أنفسهم باعتبار أن أعضاء هذه الجماعات موجودون فى صلب المجتمع الأمريكى ولكن أعضاء الأقلية اليهودية فى أمريكا يرون القضية بشكل مختلف تماماً فالتيار الأصولى يحارب الفصل بين الدين والدولة وهو أمر يضر بمصالحهم ويهدد حقوقهم وحريتهم ومكانتهم، هذه هى بعض الأفكار الأساسية للصهيونية العضوية الجديدة ويقول فيش أن ثمة جماعة جديدة أدركت «أهمية الإيمان بالميثاق» وأعضائها مجموعة من البسطاء تنطلق من «إيمان مبدئى بفرادة إسرائيل» وهذه الجماعة هى غوش أيمونهم أول تنظيم سياسى صهيونى عضوى لا يلجأ إلى ديباجات خارجية وسيتوطن فى الضفة الغربية لا لحماية اليهود أو للحفاظ على أمن الدولة أو لخدمة الاستعمار أو من أجل الديمقراطية أو الاشتراكية أو الحضارة الغربية وإنما لتحقيق الوعد الالهى والميثاق بين الله وإسرائيل وهذا الاستيطان جزء من الحوار الأزلى بين الشعب والله على حد قول بوبر، ومن ثم فهى عملية لا تنتهى ولا حدود لها ولقد بدأ الصهاينة أخيراً يكشفون هويتهم «سر القداسة وحلم الخلاص» و

«الفرادة» و «عبثها» «فحوى الوعد الالهى» وهذه كلها كلمات كبيرة تحتاج إلى تفسير فحينما يتحدث أحد عن قداسة شعبه الذى يحتل أرض شعب آخر فلابد أن تكون هناك علاقة ما بين الاعتذاريات والسلوك ففى فترة ما قبل الدولة كان الصهاينة يتحدثون عن العمل العبرى «المقدس» لأنهم كانوا يودون أن يحلو محل العربى ولذا كانت الديباجة الاشتراكية ومفهوم اليهودى الخالص مناسبين فلم الديباجة المقدسة العضوية الآن يخدع جويل فلو/ شايم يدنا على المفتاح حينما يقول أنه بدون الوعد الالهى بدون التسويغ الدينى «تصبح اعادة الأرض إلى اليهود فعلاً ولا عقلانياً أوقع الظلم سكان فلسطين العرب» ويصبح من العسير شرح المطالبة اليهودية بالأرض المقدسة وأسبقية المطالب اليهودية على الحقوق العربية وهكذا فإن الصهيونية الجديدة تسويغ للوضع الجديد ويتلخص الوضع الجديد فى أن الاستعمار الصهيونى قد ضم رقعه كبيرة من الأرض بدون وجه حق واحتلها واستبعد أهلها خارقا بذلك كل الاعراف الدينية والخلقية والدولية ولا يمكن لأى منطق مهما بلغ من الحذق والصقل أن يريد ذلك ولاسيما أن العرب يرفضون قبول الأمر الواقع وأنهم لم يختفوا بعد كما كان المفروض أن يفعلوا وأنه ليس عند الصهاينة أى حلول حتى ولو نظرية لهذا الوضع ولذا فإنه لابد من اللجوء إلى منطق هو فى جوهره لا منطق القداسة حينما تتطلع على البشر وأفعالهم إذ أنه حينما يتم ذلك يفعل الإنسان ما يحلو له فيضم الجولان وغزة والنيل والفرات ويفسر هذا على أنه جزء من الحوار مع الرب وتعبير عن الميثاق وعبء فريد لا يطيق أحد غير المستوطن الصهيونى (اليهودى المقدس) حمله وهذا تسويغ فريد لحاله فريدة هى الحالة التى وصفها افنيرى حينما تحدث عن الانتشارية الصهيونية التى لا حدود لها فهى هنا تصبح فعلاً مقدساً والأفعال المقدسة لا بداية لها ولا نهاية ولا سبب لها ولا تفسير ويمكن تفسير حاله العزلة الدائمة التى يعانى منها المستوطن الصهيونى هى الأخرى بالطريقة نفسها فالشعب اليهودى المقدس هو كما

تقدم شعب يسكن وحده وبين الشعوب لا يحسب» فهو شعب عضوى منبوذ حقاً ولذا يمكنه أن يستوطن الخليل ونابلس حفنه معزولة وسط المحيط العربى ويرى أن وجود منزله بجوار البركان أمر طبيعى تماماً ومنصوص عليه فى التراث الدينى وأما حالة الحرب الدائمة فهى الأخرى حالة ناجمة عن القداسة وقد قال الحاخام تسفى يهوداكوك zvehudakaak ابن المفكر الصهيونى الحاخام كوك) «أن جيش الدفاع الإسرائيلى هو قداسة كاملة أنه يمثل حكم شعب الله فوق أرضه واليهودى العضوى الحق لا يبحث قط عن السلام وكما قال الحاخام يعقوب اربيل yaalovariel «فإن اليهودى المتدين يعترض على السلام فهو يحتفظ بوعى تاريخى متطور لا يدعه ينسى احداث الماضى ويولد فيه موقفاً حذرا تجاه العالم الخارجى وفى نهاية الأمر «خير لنا أن ننعزل عن الأمم» كما قال الحاخام أفرايم زميل ephoraim zemmel

والصراع العربى الإسرائيلى داخل إطار القداسة صراع لا ينتهى إذا يجب النظر إليه لا فى ضوء المصالح المتصارعة وعمليات الاستيلاء على الأرض وإنما فى ضوء «سر حب اليهودى لصهيون وسر الكره العربى لإسرائيل أو كلمة «سر» هنا مستخدمة بالمعنى الدينى الحرفى والصراع إن هو الا جزء من «الميراث الشيطانى» إذا يتربص كل نسل عيسو «أى الشعوب المجاورة للعبرانيين وهنا تعنى العرب بابناء إسرائيل ليلحقوا بهم الأذى ويدمروهم أينما سنحت الفرصة «ابتداء من الهجمات الفدائية وانتهاء الاطفال العرب الذين يلقون بالحجارة على المستوطنين الأبرياء فقوى الشيطان لن تصبر على وجود شعب إسرائيل . قد أشرنا من قبل إلى «اليهودى الأبيض» الذى يكتسب حقوقه من لون جلده المتميز (والى العربى القمعى المتخلف كما أشرنا إلى اليهودى الخالص الذى يكتسب حقوقه من الاطلاق الذى يخلعه على نفسه من خلال قراءته لاحداث ما سماه «التاريخ اليهودى» وإلى العربى الهامش والعربى الغائب ويمكننا الآن أن نتحدث عن

«اليهودى المقدس» الذى يكتسب حقوقه من الاطلاق الذى يخلعه عليه كتابا المقدس ومن خلال ما يتصور أن علاقته (الحواريه العضوية) الخاصة مع الله ولا ندرى ما هى المقولة المقابلة وإن كان يمكننا القول «إن اليهودى المقدس» هو نفسه اليهودى الخالص دون ديباجات لاوبينه فحقوق اليهودى الخالص مطلقه إطلاق حقوق «اليهودى المقدس» مع فارق هو أن الأول يكلف خاطره بتزييف وقائع التاريخ ليبرر احتلاله للأرض الفلسطينية وطرده لسكانها أما الثانى فيكتفى.

- يقول هارولد فيش Haraldfisch (أستاذ فى الأدب الانكليزى أمريكى الجنسية هاجر إلى (إسرائيل) عام ١٩٥٨ ودرس فى جامعة بار إيلان وأسس معهد اليهودية والفكر الحديث ويعد من أهم مفكرى الصهيونية الجديدة ثمة أزمة روحية مركبة تؤثر فى المجتمع الاسرائيلى العلمانى فكثيرون من اتباع غوردون يبحثون عن الوظائف وبين أبناء الرواد الاشتراكيين قدر متزايد من التقليد الرخيص لحضاره الغرب والعدمية فى الأداب والفنون والتلاعب بالمال العام من أجل الربح الخاص وبين أبناء اليهود الاتقياء الذين أتوا من الأحياء اليهودية فى الدار البيضاء ومراكش قدر متزايد من جرائم العنف وإدمان المخدرات فعندما وصلوا كأطفال فى بداية الخمسينات حرمهم المجتمع العلمانى من حقهم الطبيعى الروحى وأعطاهم بضائع رخيصه فى المقابل وقد وصلت الصهيونية إلى ما وصلت من تون متمثل فى حالة المجتمع الإسرائيلى سبب خلل أساسى فى الصهيونية التقليدية هو حسب رأى فيش محاولتها تبرير المشروع الصهيونى على الطريقة الغربية (دولة بموافقة القانون العام فهو يرى أن مثل هذه الديباجة كانت مفيدة فى وقتها إذا أنها جعلت الصهيونية مفهومة أو مقبولة لا خيار ولليهود أنفسهم ولكنها مع هذا تمثل انحرافا عن جوهر الصهيونية وقد كان هذا الجوهر يحاول على الرغم من ذلك أن يعبر نفسه الأمر الذى أدى إلى ظهور ازدواجية داخل الصهيونية

ويظهر ذلك فى وثيقة اعلان (إسرائيل التى صدرت فى ٥ أيار ٥٧٠٨ (١٤ ايار/ مايو ١٩٤٨) أى أنها تتبع تقويمين واحد يهودى والآخر غير يهودى وتظهر نفس الازدواجية فى عبارة تسور اسرائيل لصخرة إسرائيل التى وردت فى تلك الوثيقة واختيرت من عمد لابهامها فهى قد تعنى الأب والملك المقدس الذى يتوجه إليه اليهودى المتدين كما أنها قد تكون هوية إسرائيل الجمعية الصخرية (الصلبة) والإرادة القومية التى تحدث عنها روسو (واحاد همام من بعده) والتى توجه مصير الأمم نوع من الجوقه الاغريقية التى تمثل الماضى والحاضر والمستقبل وقد قام مفكر دينى/ إثنى آخر هو جويل فلور شايم Joel-florshoim بتحليل ديباجة هذه الوثيقة (عرضنا لها بالتحليل من قبل) فقال أن ما جاء فيها ليس مقصورا على الشعب اليهودى وأنها ليست إلا تعبيرا عن رغبة الصهاينة فى تطبيع اليهود وتاريخهم ثم يقوم فلور شايم باظهار زيف مقولات الديباجة الواحدة تلو الأخرى فالشعب اليهودى لم يولد فى إرتس يسرائيل كما جاء فى الديباجة وإنما فى مصر وفى الصحراء وهويته الروحية والدينية والقومية تمت صياغتها فى المنفى خارج أرض إسرائيل إن مثل هذه الديباجات هى حسب تصور بقايا عصر الانعتاق والاستنارة ولابد من العودة إلى اليهودية لأن التخلى عن اليهودية (كما يفهمها فيش) وعن القيم اليهودية والعقائد اليهودية وإحلال الديباجة الاشتراكية محلها هما اللذان أديا إلى فقدان اليهود احترامهم لأنفسهم وإلى فشل الصهيونية فى علاج الروح وتظهر الازدواجية نفسها فى تاريخ الفكرة الصهيونية وتطورها ويعرض فيش لكتابات هس وكوك وفوردون وبوبر فى التوصل إلى جوهر الصهيونية هو ايمانهم بأن الصهيونية الحقه تتجاوز الإنشطارية (عباره كوك فالدين والتاريخ يحيان فى كتاباتهم شيئاً واحده والمنظور وغير المنظور يمتزجان فى وحدة مثالية تتجاوز الواقع أن جوهر الصهيونية هو حسب تصور فيش بعث مقولة القداسة فى الحياة الخاصة والعامة وقد فسر الحاخام يهود اميتال yehuda Amdae رئيس إحدى المدارس الدينية أهداف الصهيونية (كما تحددها

الفلسفة الجديدة) بشكل أوضح حين قال.

«إن الصهيونية تبحث عن حل لمشكلة اليهود تشييد دولة يهودية وإنما بتشييد دولة فى أداة فى يد الخالق الذى يعد شعب إسرائيل ليصبح أمه مثل كل الأمم وإنما ليصبح شعبا مقدسا شعب الله الحى» ويشرح فيش لاهوت رايد لوجيه الصهيونية الجديدة الصهيونية التى دعت ذاتها الحقه فينيس أن هذه الصهيونية ستكشف أن جذورها ليست فى التاريخ العربى أو تاريخ الشرق الأوسط القديم أو ما يسمى التاريخ اليهودى (كما فسره الادينيون) وأما فى الميثاق الذى عقد بين الرب والشعب (أى فيما سميناه فى مكان آخر التاريخ المقدس أو ليس هذا الميثاق مجرد تفسير ممكن للواقع وإنما هو الواقع ذاته كما تخبره إسرائيل وهو مصدر حياة هذا الشعب الأزلية ولنلاحظ أن «الواقع» الآن واقع إسرائيل مجال له قوانينه المقدسة الخاوية المقصورة على الشعب اليهودى ولا يمكن لغير اليهود التساؤل والاحتجاج عليها حتى وإن سقطوا ضحاياها) وفى داخل هذا الأطار المتسق مع نفسه المتناسق مع مقدماته الذى لا يكلف نفسه الاشارة إلى ما هو خارجه تكتسب الاطروحات الصهيونية التقليدية بعدا مدهشا جديدا فالتاريخ اليهودى ليس تاريخا عاديا والقومية اليهودية ليست قومية عادية (كما كان يدعى هرتزل وأتباعه وإنما هى كيان فريد ويحلو لاتباع هذا الاتجاه أن يقتبسوا كلمات بلعام العراف الذى دعاه ملك مؤاب ليلعن العبرانيين القدامى عند اقترابهم من مملكته وقال «هو ذا شعب يسكن وحده وبين الشعوب لا يحسب (عدد ٩١٢٣) (ويمكن ترجمتها إلى: (هوذا شعب عضوى مقدس لا يختلط بالشعوب الأخرى ولا يندمج معها ولا يحسب بين الشعوب فهو منبوذ فعزله اليهود هو الشئ الطبيعى ومن ثم فإن معاداة اليهود والرغبة العارمة فى نبذهم ليستا ظاهرتين اجتماعتين فيمكن شفاء الاغيار منهما وإنما هما تعبير طبيعى عن وجود إسرائيل وثناء عليها ففى داخل اليهودى جذور القلق وهو «كجسم

غريب كخميرة توضع فى المادة لا يعطى العالم أى سلام وأما موضوع مركزية إسرائيل فى حياة «الدياسبورا» فتكتسب بعدا دينيا عميقاً إذا أنه بعد تأسيس الدولة انتقل عبء «المصير اليهودى» إلى المستوطن فما يحدد «الشعب اليهودى ليس ذكريات الأسلاف المشتركة بين إسرائيل وأعضاء الاقليات اليهودية خارج فلسطين وحسب وإنما يحدده أيضاً المصير الفريد وقد استقر عبء القرار هذا بكليته على إسرائيل ويقول فيش أن مبدأ الحوار عند بوبر هودق فكره لوصف الصهيونية الجديد ولكن مشكلة بوبر تكمن فى أنه لم يهتم كثيرا بعالم السياسة سبب توجهه الوجودى وقلص مبداه وقصره على عالم الذات والروح وحسب ولم يطبق رؤيته على عالم الدولة على الرغم من أن نسقه الفكرى يتضمن ذلك وهذا ما يفعله فيش والصهاينة الجدد فهم يطبقون مبدأ الحوار على كل مجالات الحياة العامة والخاصة ولعله كان ينبغى انطلاقاً من هذا أن نسميها «الصهيونية الحوارية ولكننا نرى أن تسميتنا أكثر دقة لأن الاستعارة العضوية بشكلها المادى كما عند أحاد هعام والحلولى كما عند كوك ترد فى كتابات كل الصهاينة بشكل جزئى إلى أن تصل إلى تحققها الكامل فى الصهيونية العضوية كما أن هذه الاستعارة محورية فى كتابات بوبر وما الحوار إلا شكل من أشكال الوحدة العضوية وتعبير عن الحلولية كما أننا حينما تصفها بأنها صهيونية عضوية فإنما نعنى أنها صهيونية صفت كل الازدواجيات والانشطارات وملأت كل الفراغات وسدت كل المسافات وطهرت الصيغة الصهيونية تماماً من الشوائب بحيث أصبح الشكل ملتحماً بالمضمون وأصبحت القومية هى الدين والدين هو القومية وهى فوق هذا لا تبحث لنفسها عن تبرير خارج نفسها من خلال أية ديباجات غير يهودية وإنما تتخذ شكلاً دائرياً ملتفاً حول نفسه مكتفياً بذاته ويفسر هذا الوجود العضوى سر عزلة هذا الشعب وسر نبذ الشعوب الأخرى له ولعل العضوية (والحلولية) الكاملة تظهر فى شعار الجماعات السياسية التى تحاول ترجمة الفلسفة الصهيونية الجديد إلى ممارسة «أرض إسرائيل

لشعب إسرائيل تبعاً لتوراة إسرائيل (لنلاحظ العضوية والحلولية فالأرض والشعب (التربة والدم) مرتبطان بسبب التوراة التى هى مصدر القداسة لكليهما وأخيراً فإننا حين نصف هذه الصهيونية بالعضوية تكون قد بينا صلتها بالحركات السياسية المماثلة كالنازية التى تتسم بهذه العضوية المتطرفة وكالفكر القومى العضوى فى الغرب وتصل هذه الصهيونية العضوية إلى دروتها فى التفسير الحرفى للعهد القديم فالتفسير الحرفى يفترض أن الظاهر هو الباطن وأن القصص الدينى هو التاريخ وأن الوعد الالهى هو رخصة بالاستيطان كما عند الصهاينة من المسيحيين تماماً وهكذا لتكتمل الدائرة وفى هذا الإطار التوراتى يمكن لفيش أن يتوجه للجماعات المسيحية الاصولية فى الولايات المتحدة المعروفة برجعتها وحبها العميق وكرهها الأعمق لليهود كما هى الحال عند الصهاينة الأوائل من المسيحيين ويطلب منها أن تعترف بالعضوى الدينى لاحداث التاريخ وبدلالة الصهيونية والدولة واصبح التقارب بين إسرائيل والجماعات المسيحية الأصولية فى الولايات المتحدة مصدرا جديدا للتوتر بين الدولة والأقلية اليهودية هناك بالاشارة إلى العهد القديم ويتحرك داخل دائرة القداسة والحوار مع الرب وهى دائرة تهدر حقوق كل من يقع داخلها إلا صاحبها فهو وحده صاحب الحقوق وهو وحده صانع القوانين ومفسرها ولذا فإنه يمكننا أن نتحدث عن «العربى الغائب تماماً بدون مبررات أو عن العربى المدنس الذى يجب إبادته وداخل هذه الدائرة العضوية الحلولية المقدسة يصبح العرب هم العمالقة واليبوسيون وشعوب أرض كنعان الذين ورد ذكرهم فى العهد القديم يجب طردهم وأبادتهم ولذا فقد أصدر الحاخامون أوامرهم الدينية بقتل المدنيين من العرب فهذا هو أمر الشريعة وكانت إحدى المقالات التى وردت فيها مثل هذه النصائح الدينية المقدسة تحمل العنوان الصريح التالى «الوصية التوراتية الخاصة بالابادة وقد نشرتها مجلة بات كول Bat Kal التى يصدرها اتحاد طلبة جامعة بارايلان فى إسرائيل بتاريخ ٢٦ شاط فبراير ١٩٨٠ وقد قال

الحاخام اليعيرز فالدنيدع Eliezeywaldenberg يجب ألا يسمح لغير اليهود بأن يتحولوا إلى أغلبية فى الدولة الصهيونية وهو أمر من الواضح أنه لا يمكن إنجازه بالطرق السليمة أو الديمقراطية وهكذا تكون الصهيونية العضوية قد زودت المستوطن الصهيونى باطار إدراكى يمقلن عزلته الكاملة ويبرء بطشه وسطوته وغذوه ووحدته بحيث يجعل من حالته هذه استمرار لما كان راستعداد لما سيكون وتحقيق للرؤى التوراتية الم يقل «إنه شعب يسكن وحده وبين الشعوب لا يحسب» أن المستوطن الذى يبنى بيته بجوار البركان ويحيا فى خطر دائم يمكنه أن يسوغ موقفه بخلع القداسة على نفسه بحيث يرى نفسه أداة من أدوات الخلاص وجزءاً من عملية ضخمة لا يمكنه التحكم فيها على طريقة الجندى الغربى الذى كان يمقلن وجوده فى غابات أفريقيا الحارة السوداء بلون جلده الأبيض والاعباء الأخلاقية الناجمة عن ذلك ولذا تكون الصهيونية العضوية قد صنعت أية ازدواجية واسكتن أية تساؤلات وجردت المستوطن الصهيونى من أية إنسانية متعينة وخلعت عليه قداسة تصرمه من وجود الإنسانى الحق ولذا تكون الصهيونية إلا على أنه شئ أو سلعة قد تحققت تحققاً كاملاً فأعضاء المادة البشرية قد استطنوا الرؤية تمام الاستيطان وقد يحق لنا أن نثير بعض التساؤلات بخصوص تصفية الازدواجية ذاتها إذا يلاحظ رونشتاين Rubenstein أن المجتمع الإسرائيلى من أكثر المجتمعات تسيباً فى العالم وأنه يسود فيه التساهل الشديد فى الأمور الأخلاقية ومع هذا لا تتحدى الغوش ايمونهم هذه الاتجاهات وتغض الطرف عنها ويعود ذلك إلى أن هذه الجماعة تحتاج إلى تمويل ضخم لعملية الاستيطان المكلفة ومن ثم يتعين عليها أن تعتمد على الحكومات اللادينية وإذا هى تحدث الأغلبية اللادينية وعكرت صفوها فإن هذا قد يؤدى إلى توقف الاعانات ولذا فإنها تؤثر السلامة فلا تهاجم الاباحية ولا تعكر صفو اليهود اللادينين الذين لا يتبعون الوصايا والنواهى اليهودية ولا يكترثون لها بل أن جماعة غوش ايمونهم تقدم عملية الاستيطان (المقدس) ذاتها إلى

الجماهير غير المؤمنة من خلال لغة بوغماتية عملية مفهومة تماماً لديها إسكان منخفض السعر على مقربة من المدن الكبرى أى أن الصهيونية العضوية ليست عضوية بما فيه الكفاية فهى تتمسح بالديباجات الاستهلاكية السائدة فى المجتمع الصهيونى» وقد لاحظ الأديب الإسرائيلى ابراهام يهوشوع Abyohomyehoshua أن أعضاء الغوش إيمونيم سيكتسحون المستوطن الصهيونى برمته فكل الوزراء «عماليون ومراجعون من اتباع المعراج والليكود» يسارعون إلى تأييدهم وقد بدأت العناصر الاستيطانية فى كل من المعسكرين تتجذب إلى هذه الحركة الاستيطانية «فالصهيونية هجرة واستيطان» ويدا الزعماء اللادينيون يستخدمون الرموز الدينية فى أحاديثهم وأعلن بيريز مؤخراً أنه بدا يأخذ دروساً فى الدين على يد أحد الحاخامين وبدايتهم لم الشمل وتملأ الفراغات وتصبح القومية دينا والدين قومية وعلى الزعم من أن بعض أعضاء الغوش ايموينهم ومفكرى الصهيونية العضوية يحاولون الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الحاخام كاثير كاهانا كما فعلت الهاغاناه مع الارغون وكما فعل جابوتنسكى مع اشيميير إلا أن تفكير لا يخرج عن كونه ترجمة جماهيرية لنفس الأسس الفلسفية وكاهانا هو رئيس حركة (كاخ) المنظمة الصهيونية التى صاغت شعارها على النحو التالى: يد تمسك بالسيف وأخرى بالتوراة وكتبت تحتها كلمة «كاخ» وهى كلمة عبرية تعنى «هكذا» بمعنى أن السبيل الوحيد لتحقق الآمال الصهيونية هى التوراة والسيف «وهذه اصدار لبعض أقوال جابوتنسكى» وتصدر حركة كاخ عن تصور لليهودية وعلاقتها بالصهيونية لا يختلف كثيراً عن التصور العضوى لها وكاهانا يرفض الديباجات الصهيونية المتأثرة بالحضارة الغربية أو يقيم الديمقراطية ويؤكد أن اليهودية دين بطش وقوة ولذا فقد صرح بأنه لا يعرف يهوديا متدينا ليس على استعداد القول بأن ما فعلناه بالكنعانيين أيام يشوع بن نون (أى ابادتهم حسب الادعاء التوراتى) لم يكن عادلا وقد فقدت الصهيونية حسب تصوره قوتها وطاقتها حينما انفصلت عن هذه اليهودية

الباطشة ولا سبيل لبعثها إلا عن طريق ابطها بها مرة أخرى وأى تخطى الازدواجية التى أشار إليها فيش ولذا يطالب كاهانا بتغيير التعليم فى (إسرائيل) تغييراً شاملاً ودمجه باليهودية دمجاً كاملاً وأما بالنسبة إلى أعضاء الأقليات وعليهم الهجرة إلى «إسرائيل» إذا أنه لا مستقبل لهم إلا هناك وهو يرى أن يهود العالم (الشعب العضوى المنبوذ) يتعرضون لعملية إبادة جديدة وأن المؤسسة اليهودية فى العالم بأسره متعفنة وخائنة لأنها لا تنبه اليهود الآن على عتبات الخلاص النهائى وسيأتى الماشياح لا محالة وسيسود الشعب المختار كل الشعوب الأخرى وتترجم هذه الأفكار نفسها بشأن اليهود واليهودية إلى فكر محدد بشأن الدولة الصهيونية فإسرائيل هى حسب رؤية كاهانا وطن الأمة اليهودية ومن ثم يكون اعتناق اليهودية هو الأساس الوحيد لاكتساب الجنسية الاسرائيلية ومن لا يعتنقها يظل «غريبا» لا يتمتع بأية حقوق سياسية ولن تسمح الدولة اليهودية العضوية بتكاثر هؤلاء الغرباء حتى لا يهدوا منها ولن يمنحوا سوى إقامة مؤقتة لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد بعد خضوعهم لتحقق دقيق فى نهاية كل عام وعلى العرب الذين يبقون داخل الدولة اليهودية أن يقبلوا العبودية يبقون كعبيد ودافعى ضرائب وهم سيبقون فى الدرجة السفلى لا يرفعون رؤوسهم فى وجه إسرائيل وسيمنع غير اليهود أى العرب من الاقامة فى القدس ومن شغل الوظائف الهامة ومن التصويت فى انتخابات الكنيست كما سيمنع اختلاطهم باليهود فى كثير من الأماكن العامة كالمسابح والمدارس وسيحظر بطبيعة الحال الزواج المختلط اثمه تشابه كبير بين قوانين كاهانا (الصهيونية العضوية وقوانين نور مبدع (النازية العضوية) كما بين مايكل إيتسان maechel Eytan عضو الكنيست الإسرائيلى ويوزع كاهانا خريطة إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات إذ أنه حسب رأيه لا مجال للشك فيما ورد فى التوراة أن أرضنا تمتد من النيل إلى الفرات والعنصر الجغرافى هام للغاية فى تفكيره كما هى الحال فى الفكر الصهيونى بشكل عام فالأرض كما يقول هى الوعاء

الذى يضم جماعة من البشر عليهم أن يحيوا فيها حياة متميزة عن حياة غيرهم من الجماعات الانسانية وأن يحققوا رسالتهم القومية والتراثية والدولة هى الاداة لتحقيق ذلك الغرض ولتمكين الشعب من بلوغ غاياته فالأمة هى صاحبة الأرض وسيدتها والناس هم اللذين يحددون هوية الأرض لا العكس فالشخص لا يصبح إسرائيليا لأنه يعيش فى أرض (إسرائيل) ولكنه يصبح إسرائيليا عندما ينتمى إلى شعب إسرائيل ويغدو جزء من الأمة الإسرائيلية والدولة الصهيونية التى سيعبر اليهودى من خلالها عن هويته دولة عضوية تقوم على وحدة السُلالة ونقاء الدم كما تقوم على أساس أعلان السيادة اليهودية المهيمنة على جميع مناحى الحياة فى (إسرائيل) والنظام السياسى الأمثل كما يراه كاهانا هو نظام يستند إلى التوراة ولذا فإنه يفضل قانون التوراة على قانون الكنيست شأنه شان فلاسفة الصهيونية الجديدة بالتمام أن «تطرف» كاهانا لا يمكن تفسيره إلا بالعودة إلى النسق الصهيونى فهو نسق يحتوى على بذور معظم هذه الأفكار والممارسات وإذا كان هوتزل قد تحدث عن «طرد السكان الأصليين» بشكل ليبرالى عام فلانه لم يكن فى أوريا مضطر إلى الدخول فى التفاصيل المحددة فى هذه المرحلة لقد كان مشغولاً بالبحث عن إحدى القوى العظمى لتقف وراء وتشد من أزره وتقبل به عميلاً لها ولذا كانت الصياغات العامة بالنسبة إلى السكان الأصليين مناسبة تماماً فى تلك المرحلة وإذا كانت الدولة الصهيونية قد احتفظت بعد عام ١٩٤٨ بالديباجية الاشتراكية فلأنها كانت قد «نظفت الأرض من معظم العرب» وكان بوسعها أن تكبل الأقلية المتبقية بمجموعة من «القوانين» وأن تنقل الفائض اليهودى إلى فلسطين وهى عملية نقل تفقد أعضاء هذا الفائض مضمونهم الطبقى القديم وتكسبهم مضموناً جديداً فالعامل الثورى من روسيا والبقال المحافظ من بولندا والرأسمالى الليبرالى من المانيا حينما يتم نقلها إلى فلسطين تحت رعاية الإمبريالية يصبحون جميعهم أداة فى يد الاستعمار رغم حديث الأول عن الثورة الحمراء والثانى عن الاصلاح

الاجتماعى والثالث عن الحرية والاخاء والمساواة وحينما تم طرح الصيغة الصهيونية على أعضاء الأقليات اليهودية فى العالم لم تكن قط صيغة محددة المعالم ولا كان لها مضمون طبقى أو سياسى واضح لأنه تم تحاشى ذلك تماماً ولذلك لم تحتو هذه الصيغة إلا على قاسم مشترك أعظم وديباجات مختلفة لا حصر لها وقد أشرنا إلى وجود صهيونيتين مختلفتين متناقضتين واحدة خارجية والأخرى استيطانية ولقد احتفظت الصهيونية بالديباجات المختلفة وبالتناقض الأساسى حتى يمكن تجنيد كل أعضاء الأقليات أينما كانوا فقامت بتجنيد يهود الغرب المندمجين بمن فيهم الاثرياء وأعضاء الطبقة المتوسطة والفقراء وقامت بتجنيد أى فائض بشرى فى شرق أوربا سواء كانوا عمالا أو فلاحين أو بورجوازيين صغارا ثم فرضت الصهيونية بعد إنشاء الدولة مضمونها الصهيونى العام على يهود البلاد العربية الذين يضمون عناصر قبلية وعمالاً وفلاحين ومثقفين ومموليين كبارا وهى تقوم الآن بتجنيد يهود الولايات المتحدة بكل طبقاتهم وكل حسب هواه لاغراض صهيونية مختلفة.

هجرة اليهود الى فلسطين

٢ـ الصهيونية بين النجاح والإخفاق

إذا كنا فى المقال الماضى الذى بدأنا فيه الحديث عن رؤية المثقفين العرب للمشروع الصهيونى، قد مهدنا لتحليلنا لهذه الرؤية بإثارة قضية الوعى المنهجى للمثقفين العرب بضرورة الاستناد إلى معايير محددة لتقييم هذا المشروع التاريخى الممتد، فإننا اليوم نقوم بعرض إدراكات المثقفين العرب لنجاحات الصهيونية وإخفاقها.

ويمكن القول بوجه عام إن معايير النجاح والإخفاق تعددت واختلفت بين مثقف عربى وآخر. فمضى الوقت الذى حاكم فيه بعض المثقفين الصهيونية وفى ضوء أهدافها الرئيسية وهل تحققت، وبرنامجها المبدئى وهل تم تنفيذه، نجد البعض الآخر يركز على رد الفعل العربى، باعتباره عاملاً حاسماً أدى إلى إخفاق الصهيونية فى تحقيق أهدافهما كاملة، بالرغم من بعض نجاحاتها النسبية. ومن أبرز المثقفين العرب الذى عالجو بتفصيل ملفت للنظر قضية النجاح/ والإخفاق، أبو مازن وأحمد صدقى الدجانى والجنحانى وعبد القادر ياسين والمسيرى.

◆ سقوط النظرية الصهيونية

قام أبو مازن بتقييم منهجى لنجاحات الصهيونية وإخفاقاتها فى ظل دراسته لمحتوى هذه النظرية والأسس التى قامت عليها. وهذا التقييم هو الذى أتاح له ـ بعد أن فصل فيه ـ أن يصل إلى نتيجة أساسية مبناها أن النظرية الصهيونية بعد مضى مائة عام قد سقطت، لكن الدولة العبرية لازالت قائمة أو لعل السؤال هنا هو كيف توصل أبو مازن إلى هذه النتيجة؟. يقرر أبو مازن فى البداية أن هناك قواعد أساسية قامت عليها الحركة الصهيونية وهى:

أولاً: لابد من هجرة اليهود إلى فلسطين، والصهيونية هى الهجرة، وثانياً التوسع والاستيطان والحدود، حيث تصل أقدام الجنود،

وثالثاً نفى الأغيار.

والسؤال الأول هل تمت هجرة جميع اليهود إلى فلسطين؟

والجواب (كلا) لأن عدداً قليلاً هاجر إلى فلسطين بينما الباقون استقروا حيث هم، أو انتقلوا إلى أمكنة أخرى مثل الولايات المتحدة، حيث يوجد بها ستة ملايين يهودى على الأقل، منهم ٧٠٠ ألف يحملون الجنسية الاسرائيلية أى أنهم هاجروا إليها من إسرائيل.

ويقرر أبو مازن فيما يتعلق بالهجرة «أن عدد اليهود فى العالم لا يقل عن ستة عشر مليونا منهم أربعة ملايين فى إسرائيل والباقى فى الخارج. وهذا يعنى أن البند الأول من بنود الحركة الصهيونية لم يتحقق بالمعنى المطلق، وإنما تحقق فقط بالمعنى النسبى الضئيل. ومهما قيل فى الأسباب التى تحول دون هجرة اليهود إلى فلسطين، إلا أنها جميعاً لا تغطى قضية هامة، وهى أن الهجرة هى الركن الأساسى من أركان الصهيونية، وبالتالى فإن اليهود الذين يقيمون فى الخارج هم يهود ولكنهم ليسوا صهاينة، وأن الحركة الصهيونية لم تستطع إقناعهم بضرورة الهجرة إلى إسرائيل.

وينتقل أبو مازن منه بعد إلى هدف التوسع والاستيطان وعدم وجود حدود. ويقرر أنه يمكن النظر إليه على أساس أن الحركة الصهيونية قد حققت فيه نجاحات نسبية فيما كانت تسعى إليه «بمعنى أنها كانت تملك فى عام ١٩٤٧ فقط ٧٪ من أرض فلسطين، وقد منحها قرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عند الجمعية العامة حوالى ٥٤٪ من مجمل هذه الأرض، إلا أنها نتيجة لحرب ١٩٤٨ احتلت ٧٩٪ من أرض فلسطين، بمعنى أنها استولت على ٢٥٪ إضافة إلى المساحة التى منحتها إياها قرارات الأمم المتحدة التى نصت على إنشائها. وفى حرب ١٩٦٧ أكملت استيلاءها على كل فلسطين. وفى تقييمه النهائى للهدف الصهيونى الأول يرى أبو مازن أن الصهيونية نجحت نجاحا نسبياً فى السيطرة على نسبة مهمة من أرض فلسطين، كما نجحت فى انتزاع الاعتراف الدولى بكل الأرض التى سيطرت عليها قبل عام ١٩٦٧

وقبل صدور القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨، وينتهى إلى أنه تحت كل الظروف فإن إسرائيل بدأت تحدد حدودها، وهى فى طريقها إلى أن تستكمل هذا التحديد، وبالتالى تسقط كل المقاولات التى تفترض أن حدود إسرائيل من الفرات إلى النيل.

ويمكن القول أن الحركة الصهيونية نجحت فى نفس الشعب الفلسطينى مدة تصل إلى حدود قرن، ولكنها لم تنجح إلى النهاية.

ذلك أن عام ١٩٩٣ شهد الاعتراف المتبادل حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى. ومعنى ذلك أن اسرائيل غير قابلة للتوسع، ومادامت غير قابلة للتوسع، فهى لن تكون قادرة على استيعاب هجرات جديدة.

◆ دولة دينية عنصرية.

هل يعتبر تأسيس دولة إسرائيل على أسس إيديولوجية دينية متعصبة، ولا تعيش إلا فى حماية قوة عسكرية غاشمة، نجاحا أم فشلا للمشروع الصهيونى؟ يجيب على ذلك المثقف التونسى الجيب الجنحانى بأن ذلك فى الواقع يعد ذروة الفشل. غير أنه لا ينفى أن الصهيونية قد حققت عدداً من النجاحات. وقد لخص هذه النجاحات فى ثلاثة أمور جوهرية. فقد نجحت الصهيونية أولا فى تحويل روح التكتل الطائفى الدينى للأقليات اليهودية إلى ايديولوجية سياسية متسترة بالدين تهدف إلى تأسيس «وطن قومى» ودولة يهودية، وبذلك تخرج اليهودية من المرحلة الطائفية القابعة داخل أحياء (الجيتو) إلى العالمية السياسية والاستعمارية، ونجحت الصهيونية ثانياً فى التحام مصالح البرجوازية اليهودية بالبرجوازية الأروبية وأوهمت أنصار الليبرالية الجديدة، وبخاصة المثقفة فى البلدان الأروبية بإنها حركة تجديدية ذات أيدلوجية علمانية مستقلة، ونجحت الصهيونية أخيراً فى تأسيس الدولة اليهودية وتقديمها للرأى العام الغربى بأنها امتداد للمشروع الغربى فى الشرق الأوسط، وأنها تمثل واحة للديمقراطية والتقدم فى محيط.

الأسطورة الصهيونية
والانتفاضة الفلسطينية

من صراع الوجود
إلى صراع الحدود!

ليس هناك خلاف على أن الهزيمة العربية فى يونية ١٩٦٧ كانت واقعة تاريخية فاصلة فى التاريخ العربى المعاصر وبعيدا عن الحديث عن الأحداث العنيفة التى أحدثتها فى الوعى العربى فإنه يمكن القول إن أخطر نتائجها على مستوى العقيدة السياسية إن صح التعبير كان تغير الوصف التقليدى للصراع الذى دفعته الأمة العربية ضد المشروع الصهيونى والدولة الإسرائيلية بأنه صراع وجود لكى يخلى طريقه وإن كان بشكل تدريجى إلى وصف آخر وهو أنه فى الواقع صراع حدود الوصف الأول كان معناه إما نحن وإما هم فى المنطقة بمعنى أنه لابد من معركة عسكرية فاصلة تهزمهم هزيمة ساحقة وتفتح الباب لصورة الشعب الفلسطينى إلى وطنه مع قبول حضارى بالتواجد اليهودى فى فلسطين ـ أما الوصف الثانى فيتخلى. تحت وطأة الهزيمة ومرارة الواقع ـ عن هذا الهدف الطموح، ويقنع باسترداد الأرض العربية الشاسعة فى سيناء والجولان والضفة الغربية والتى احتلتها إسرائيل والمطالبة بعد ذلك بحقوق الشعب الفلسطينى.

بالإضافة إلى تبلور إدرك واقعى لحدود القوة العسكرية العربية التى تكفى بالكاد لتحرير الأراضى العربية المحتلة وأخيراً رؤية أكثر جفاء ودقة لتعقيدات النظام الدولى والتحيذ الغربى الإسرائيلى.

ولعل ما يكشف عن صحة التحليل السابق أن حرب أكتوبر المجيدة ذاتها وبالرغم من أنها أعلى ندوة وحلها النضال العسكرى العربى ضد إسرائيل فإنهما أدت سياسياً إلى توقيع اتفاقية كامب دافيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية مما فتح الباب ولو بعد عقود إلى قبول فكرة إن الصراع هو صراع حدود وأن إسرائيل إن انسحبت من الأرض العربية المحتلة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ فإنه يمكن الإعتراف لها والتفاوض معهما وتطبيع العلاقات الإسرائيلية العربية ولعل اتفاقية أوسلو التى عقدتها منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل سرا وما تبعهما من توقيع المعاهدة الإردنية الإسرائيلية بالإضافة إلى المفاوضات السورية الإسرائيلية التى تمت فى إطار مؤتمر مدريد تؤكد أن التحول الكيفى فى رؤية الصراع الإسرائيلى العربى وتفيد الإدراك العربى إذاء إسرائيل قد تم بالفعل.

قراءة حاضر الصراع

إذا كان من قبل قد قرأنا تاريخ الصراع فمن الأهمية بمكان قراءة حاضر الصراع قبل أن تغامر باستشراف مستقبله ولعل أول ملاحظة ينعقد الاجماع حولها أن السمة البارزة لحاضرة الصراع هو الخلل الشديد فى توازن القوى بين إسرائيل والدول العربية ولو أخذنا بمفهوم قوة الدولة بمعناه الشامل وتعنى عسكريا واقتصاديا وتكنولوجيا لأدركنا أن هناك فجوة هائلة بين قوة الدولة الإسرائيلية والقوة العربية.

وقد حاول الباحث الفلسطينى المعروف زياد أبو عمر فى ندوة: (صراع القرن أن يحدد الملامح من كامب دافيد فى أوسلو فى ثمانية ملامح أساسية كما يلى:

١ - تشتت الحال العربى قبل كامب دافيد ويتحدث الباحث هنا عن حالة التشتت والتراجع العربى التى شكلت مقدمة ومدخلاً للزيارة التى قام بها الرئيس أنور السادات للقدس وبعد ذلك بعامين للاتفاق الانفرادى الذى وقعه مع إسرائيل برعاية أمريكية فى كامب دافيد.

٢ - غياب أو تغيب الخيار العسكرى فلسطينياً وعربياً (وليس إسرائيلياً) ويرى أبو عمر أنه كان لحرب ١٩٧٣ ونتائجها عظيم الأثر فى تشكل قناعه لدى الأطراف العربية بعدم إمكانية انزال هزيمة فعلية الانتصار عسكريا قاطع ضد إسرائيل وسواء كان ذلك بسبب قوة إسرائيل العسكرية أو بسبب الدعم الأمريكى غير المحدود أو بالقرار السياسى الخاص بعدم السماح بهزيمة إسرائيل عسكرياً حتى لو أدى ذلك إلى تدخل عسكرى مباشر.

وأهم من ذلك أن الفلسطينيين استخلصوا بدورهم عبرة من نوع آخر وهو أنه لم يكن بمقدور جيوش عربية قوية انزال هزيمة إسرائيل فإنه لن يعود بمقدور (الكفاح الفلسطينى المسلح) أو العمل الفدائى مثل هذا الهدف.

٣ ـ سيادة التسويات المنفردة مهدت اتفاقات كامب دافيد المنفردة الطريق أمام عقد المزيد من الاتفاقات المنفردة مع إسرائيل وهى اتفاق أوسلو ١٩٩٢ بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل وإتفاقية وادى عربة عام ١٩٩٤ بين الأردن وإسرائيل.

٤ ـ ضياع الأجماع الفلسطينى والعربى حول طبيعة الصراع والحل ويمكن القول أنه منذ اتفاقيات كامب دافيد على الأقل وبعد الانتفاضات العربية الإسرائيلية لم يعد هناك إجماع فلسطينى أو عربى حول طبيعة الصراع الفلسطينى العربى الإسرائيلى ويرى زياد أبو عمر أن ضياع هذا الأجماع فى حقيقة الأمر قد بدأ بقبول بعض الدول العربية بقرار مجلس الأمن الدولى رقم ٢٤٢ عام ١٩٦٧ وبعد ذلك القبول بمبدأ الأرض فى مقابل السلام.

والمهم فى كل ذلك أنه مثلما لا يوجد إجماع على طبيعة الصراع فلا يوجد إجماع أيضاً على طبيعة الحل.

٥ ـ استمرار الصراع والجدل بين اتجاه المقاطعة واتجاه التطبيع ويمكن القول إن الصراع والجدل العلنى حول مقاطعة إسرائيل والتطبيع مهما بدأ بعد عقد اتفاقات كامب دافيد ومازال محترما حتى هذه اللحظة.

٦ ـ نشوء حالة من الانفصام فى الوعى العربى ويقصد بذلك أن ضياع الإجماع الفلسطينى العربى حول طبيعية الصراع مع إسرائيل وطريقة حل هذا الصراع وكذلك الجدل الفلسطينى والعربى حول المقاطعة أو التطبيع أدى إلى خلق حالة انفصال فى الوعى العربى تجاه الموقف من الصهيونية وإسرائيل ومستقبلهما فى المنطقة فهناك رأيان، الأول يذهب إلى أنه هناك.. إمكانية للتعايش بين الصهيونية من ناحية والوطنية الفلسطينية والقومية العربية من ناحية أخرى والرأى الآخر يرى عكس ذلك على أساس أن التناقض والصراع أمر حتمى.

٧ - تراجع المشروعين الوطنى الفلسطينى والقومى العربى من أبرز سمات حاضر الصراع تراجع المشروع الوطنى الفلسطينى والذى تمثلت أهدافه فى البداية فى حق تقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة وعاصمتها القدس وممارسة حق العودة حسب قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ إذا قارنا هذه الأهداف بالواقع الفلسطينى الراهن فمن السهل ملاحظة أنه يعانى من التراجع وأنه مهدد بالمزيد من التراجع فى ظل إصرار إسرائيل على عدم الالتزام باتفاقيات أوسلو اما المشروع القومى العربى فهو فى حالة انحسار بعد أن ساد منطق الدولة القطرية العربية.

٨ - عدم التغيير الجوهرى فى الموقف الإسرائيلى الصهيونى وتعنى الموقف من الإستيلاء على الأراضى الفلسطينية واستيطانها وطرد السكان منهما وبناء المستوطنات الإسرائيلية فى المنطقة.

٩ - ومازال الموقف يتسم بالعجز عن تنفيذ قرارات الأمم المتحدة وإعمال قواعد الشرعية الدولية.

تقييم الوضع الفلسطيني

إذا كانت هذه هي الملامح الأساسية لحاضر الصراع العربي الإسرائيلي فإن هناك سؤالاً مهما ينبغي إشارته: ـ ما هو تقيم الوضع الفلسطيني في الوقت الراهن؟

يمكن لنا من خلال متابعتنا الدقيقة للوضع الفلسطيني بعد عقد إتفاقية أوسلو أن نقرر أن المرحلة الأولى بعد الاتفاق حين كان رابين رئيساً لوزراء إسرائيل اتسمت بالتعثر خصوصاً وإن التردد الشاب الخطوات الإسرائيلية فيما يتعلق بتنفيذ التعهدات الإسرائيلين في موضوع إعادة الانتشار والمراحل المختلفة للتطبيق واحترام التوقيتات المنصوص عليهما.

ومع ذلك يمكن القول أنه كان هناك حوار متصل فلسطيني إسرائيلي وضغوط شديدة يمارسها كل طرف على الآخر بطريقته بالرغم من الاعتراف بتفاوت موازين القوة بين السلطة الوطنية والدولة الإسرائيلية.

واستمر الموقف هكذا بعد اغتيال رابين وتولي بيريز منصب رئيس الوزراء خلفا له غير أن الموقف تغيير كيفيا بعد أن استطاع الليكود بقيادة نتنياهو هزيمة حذب العمل وتوليه منصب رئيس الوزراء إسرائيل بسلطة واسعة غير مبسوقة واستطاع نتنياهو خلال فترة قياسيه أن يغير بالكامل مناخ التفاوض وعمل بطريقة منهجيه على الألغاء الفعلي لاتفاق أوسلو بل أنه مارس السياسات الاستيطانية بعنف شديد ولم يستجب لكافة الضغوط الدولية وعامل الولايات المتحدة الأمريكية بتعال وغطرسة شديدة رافضا كافة مبادراتهما المتوالية بل أنه في زياراته للولايات المتحدة الأمريكية تعامل مع اللوبي الصهيوني الأمريكي كأنه تابع له مباشرة متخطيا بذلك كل الأعراف التي كانت قد استقرت في التعامل الأمريكي الإسرائيلي.

في ضوء ذلك يصبح التساؤل عن الوضع الفلسطيني مهما وتصبح

الإجابات الفلسطينية بالذات بحكم معايشة أصحابها للواقع أكثر أهمية ضد ندوة (صراع القرن) عرضت رؤيتان متعارضتان تماماً دافع عن الأولى الباحث الفلسطينى الدكتور على الجرياوى الذى قدم فى بعثة رؤية نقدية حادة وأعلن اخلاص الوضع الفلسطينى والرؤية المضادة قدمهما المفكر الفلسطينى المعروف أحمد صدقى الوجانى والمشهور برؤيته المتفائلة وبتركيزه على الدوائر الحضارية العالمية والإسلامية كان الدجانى كعادته بالرغم من اعتراضه بمأساوية الوضع الفلسطينى متأكداً أننا على أبواب صحوه حضارية كبرى وفى رأية أن مستقبل الشعوب لا يمكن الحكم عليه فى لحظات التراجع المؤقت لأن التراجع يمكن لو احسنا استثمار موارد القوة العربية الإسلامية أن يتحول إلى صحوة عارمة.

الإرهاب الإسرائيلى والفعل العربى

لا يمكن وصف المواجهات الدامية التى دارت فى الأسابيع الماضية بين قوات جيش الدفاع الإسرائيلى والجماهير الفلسطينية الا بكونهما ضربا من ضروب إرهاب الدولة الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى.

ومن المعروف أن تاريخنا أن دولة إسرائيل التى نشأت نتيجة خطة صهيونية محكمة الاستيطان لفلسطين قامت أساساً من خلال الأعمال الإرهابية التى نفذتها العصابات الصهيونية بل إن أبرز قادة دولة إسرائيل كانوا هم أنفسهم قادة هذه العصابات والتى تزخر سجلاتها بالمذابح التى وجهت للسكان الفلسطينيين أصحاب البلاد لدفعهم دفعاً إلى النزوح وما هو باراك الارهابى المحترف بحى تراث الدولة الإسرائيلية والذى لم تنقطع إسرائيل عن ممارسته منذ إنشائها عام ١٩٢٨ حتى اليوم غير أنه يضاف إلى ارهاب الدولة إرهاب المستوطنين الذين أطلقتهم السلطات الإسرائيلية كالذئاب الجائعة لاغتيال المواطنين الفلسطينيين العزل ولعل السؤال الذى يطرح نفسه ما الذى دفع باراك لكى يوافق على الزيارة الاستفزازية التى قام بها السفاح

الإسرائيلى الشهير شارون زعيم حزب الليكود إلى حرم المسجد الأقصى؟

هل هو إعلان عن فشله هو الرئيس الأمريكى كلينتون فى ارغام ياسر عرفات فى مفاوضات كامب ديفيد على الأقدار بشرعية المطالب الإسرائيلية فى القدس؟

مما لاشك فيه أنه أيا كانت الحسابات التى أداها باراك فى رأسه فقد كانت خاطئة تماماً لأنه لم يتخيل أن زيارة شارون ستستغل الجماهير الفلسطينية ثورة وغضبا على المساس بالمقدسات الإسلامية ومعهما الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج.

لقد أدى الغباء السياسى للنخبة الحاكمة فى إسرائيل يتساوى فى ذلك زعماء حزبى العمل والليكود والذى تمثل فى المراوغات العقيمة فى مفاوضات التسوية السليمة إلى هذا الطريق المسدود ويمكن القول دون أدنى مبالغة أن الهمجية الإسرائيلية نسقت جهودا طويلة بذلتها إسرائيل لتحور نفسها بأنهما تبحث فى السلام مع العرب بالإضافة إلى مشاريعهما الطموحة لايجار شرق أوسط جديد على طريقة شمعون بيريز حيث تمارس إسرائيل علاقات طبيعية تعاونية مع كل الدول العربية فى إطار مؤسسى يقوم على تعميق العلاقات الاقتصادية ويعطى إسرائيل الفرصة الكاملة للتفاذ إلى السوق العربية بغير حدود ولا قيود.

ولعل الإرهاب بشقيه وتضى إرهاب الدولة وإرهاب المستوطنين قد أدى إلى تبديد عديد من الأوهام التى تبعتها دوائر عربية رسمية حول إمكان تحقيق نسوية سليمة فلسطينية إسرائيلية تحقق السلام العادل ناهيك عن بعض الدوائر الضيقة للمثقفين العرب التى حاولت أن تنشئ حركة سلام عربية للحوار مع حركة السلام الآن الإسرائيلية.

وإذا طالعنا شهادات زعماء حركة السلام الآن فى إسرائيل والتى

نشرت فى جريدة الواشنطن بوست فى الأيام الأخيرة لعرفنا كم الأحباط الذى يشعرون به بعد إدراكهم أن الأحداث الأخيرة كشفت عن عمق العداء الإسرائيلى للفلسطينيين والعربية ضد الإسرائيليين نتيجة لازمة الارهاب الإسرائيلى المنظم وللرفض القاطع للمطالب الفلسطينية المشروعة وللمراوغة العقيمة فى المفاوضات.

ولا يمكن تفسير السلوك الإسرائيلى الذى شابته ضروب شتى من الهستيريا الا بكوفه تعبيرا بليغا عن المنصرية الصهيونية المتجذرة فى إدراكات عديد من الجماعات السياسية الإسرائيلية والمتوزعة بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار على السواء.

ونعتقد أن بعض المقالات الصحفية الإسرائيلية لم يجانبهما الصواب، حين قررت أن السلوك الرسرائيلى يكشف عن خوف ورعب السلطة الرسرائيلية وهو الذى دعاها إلى المبالغة فى استخدام القوة بصورة غير مسبوقة مما أثار استنكار الدوائر العالمية الرسمية منهما والشعبية.

وإذا تأملنا ردود الفعل العالمية لأدركنا أولاً أن التحيز الأمريكى لإسرائيل سيظل قائماً إلى الأبد.

ويلفت النظر أيضاً بشدة تخاذل الأمين العام للأمم المتحدة كوفى عنان وممارساته التى حصلته أشبه ما يكون بموظف لدى الولايات المتحدة وإسرائيل لأنه هرع إلى المنطقة أساساً لحل نشكلة الجنود الإسرائيليين الذين أسرهم حزب الله فكان سقوط مئات الشهداء الفلسطينيين صرعى الرصاص الإسرائيلى لم يحرك له ساكنا والا دفعه للعمل فى إطار مجلس الأمن لاستعداد قرار صريح يدين الإرهاب الإسرائيلى وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على هذال الأمانة العامة للأمم المتحدة وعجزها عن التعدى بموضوعية للهمجية الإسرائيلية.

وكذلك كان سلوك مندوب الاتحاد الأوربى الذى اقتصرت مهمته على تبقى طلبات إسرائيل والالحاح لمعرفة حال الجنود الأسرى الإسرائيليين وكأن أسر هؤلاء يمثل عقدة الصراع الإسرائيلى الفلسطينى

الفعل العربى: - فى مواجهة الإرهاب الإسرائيلى لن يجدى رفع الشهادات الجوفاء التى تدعو لشن الحرب ضد إسرائيل دون إستعداد أو تلك التى تنادى بالجهاد دون دراسة أو فتح باب التطوع بطريقة غوغائية هذه الأصوات الزاعقة التى تصاعدت من قبل بعض الرؤساء العرب أو بعض الأحزاب السياسية العربية أو بعض الأقلام الصحفية إنما تعيد إلى ذاكرتنا للأسف الشديد الأجواء السياسية الغوغائية التى سارت مصر وبعض البلاد العربية قبل حرب يونيو ١٩٦٧.

ولقد ظننا أن نموذج حرب أكتوبر ١٩٧٣ بما انطوى عليه من تخطيط عقلانى دقيق واستعداد عسكرى كامل وتدريب متواصل ودقة فى عملية إصدار القرار وتعبئة منظمة لجميع القوى البشرية والموارد الاقتصادية ضد بدر أساليب الغوغائية السياسية التى أدت إلى الهزيمة الساحقة فى يونيو ١٩٦٧ ولكن ما هى أصوات شبيهة بالأصوات الزاعقة القديمة تعود إلى الحياة من جديد.

ولهوه ونقول: إن صيحات الحرب التى تطلق دون أى حسابات عقلانية ودون أدنى دراسة علمية لبس من شأنها سوى إحلاق وتبديد الطاقات الجماهيرية وتحذير الرأى العام العربى ولذلك نتوقع الفعل العربى على المستوى الرسمى والشعبى أن يتخذ مساراً مختلفاً تمام الإختلاف فمؤتمر القمة العربية عليه أو لا أن يشخص الموقف الراهن بدقة وأن يضع بالتفاهم مع السلطة الفلسطينية حطة متكاملة تكفل حماية أرواح الشعب الفلسطينى من خلال تحريك أجهزة الأمم المتحدة عن طريق خطة سياسية متسقة مع الدول المتعاطفة مع الشعب الفلسطينى لدفع مجلس الأمن لاتخاذ المواقف

اللازمة والقادرة على منع إسرائيل من متابعة سياسة متسقة مع الدول المتعاطفة مع الشعب الفلسطيني لدفع مجلس الأمن لاتخاذ المواقف اللازمة والقادرة على منع إسرائيل من متابعة سياستها الارهابية فى فلسطين ومن ناحية أخرى لابد من خطة اعلامية نشيطة تصل إلى كل مؤسسات المجتمع المدنى العالمى لابراز شرعية الحقوق الفلسطينية وإدانة إسرائيل على ما ترتكبه من جرائم خارقة بذلك القانون الدولى.

غير أنه أهم من ذلك كله لابد من قرارات تجمد بالكامل عملية التطبيع الرسمى بين الدول العربية والدولة الإسرائيلية وبكل صورة خاصة التطبيع الرسمى بين الدول العربية والدولة الإسرائيلية وبكل صورة خاصة التطبيع الاقتصادى وليس معنى ذلك رفض الحوار أو إلغاء العملية التفاوضية ولكن الهدف الرئيسى هو إشعار إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية داعيتهما بأن الدول العربية قادرة على الانتقال من دائرة الكلام إلى دائرة الفعل.

وتأكدا لهذا الاتجاه لابد لمؤتمر القمة أن يضع بالتعاون مع السلطة الفلسطينية - خطة واضحة تحدد أهداف التفاوض مع السلطة الفلسطينية - خطة واضحة تحدد أهداف التفاوض مع الدول الرسرائيلية لو قدر له أن يبدأ من جديد مع تحديد واضح للحدود الدنيا التى لا يجوز بأى حال من الأحوال النزول عنهما سواء فيما يتعلق بالقدس أو دعوة اللاجئين أو التعويضات المستحقة أو إعلان الدولة الفلسطينية.

غير أنه من الأهمية بمكان التسشر أما للمستقبل أن فقد خطط مدروسة قابلة للتطبيق فى حالة ما إذا نسفت إسرائيل مسيرة التسوية السليمة بالكامل وفزعت إلى شن حرب ضد الشعب الفلسطينى وفد السلطة الفلسطينية هنا لابد من خطة متكاملة للدعم الاقتصادى والمالى اللازم لدعم الشعب الفلسطينى ومساعدته على العمود ليس ذلك فقط بل لابد من خطة استراتيجية لاطلاق انتفاضة فلسطينية كاملة لا تكون مجرد تكرار لانتفاضة

الحجارة وإنما تتجاوز بصورة كيفية.

ويقضى تحقيق هذا الهدف الاستراتيجى توافر التفكير الإبداعى الخلاق الذى يسمح بتحديد اليات التنفيذ من ناحية ومواجهة الاحتمالات المختلفة بوضع خطط بديلة كما أن هذا الهدف يقضى توجد حقوق الشعب الفلسطينى حول قيادته التاريخية يكون نتيجة حوار فلسطينى - فلسطينى ديمقراطى ومفتوح بالإضافة إلى تشكيل هيئة عليا عربية لدعم كفاح الشعب الفلسطينى لا تقتصر عضويتها على الحكومات العربية وإنما تمتد لتشمل كل مؤسسات المجتمع المدنى العربى.

إذا خرجت إسرائيل الحرب الشاملة ضد الشعب الفلسطينى بفرض إبادته ودفعه للنزوح من أرضه التاريخية فليس هناك متناقض من أن يقابل السلاح بلاسلاح.

من خارج البيت الزجاجى

د. بطرس غالى: القوة وحدها القادرة على استعادة حقوق الشعب الفلسطينى

عندما اتصلنا بمنزل الدكتور بطرس غالى فى باريس طالبين شهادته حول المراحل التى عاشها وشارك فيها وتأملها وصاغها من الصراع بين العرب وإسرائيل جاءنا صوت السيدة زوجته - كعادتهما» مرحباً مهلاً «مصر على التليفون» وجاء صوت الدكتور غالى بعدها: - صباح الفل يا أهلاً بمصر وبنصف الدنيا مع رجاء بنقل تحية حارة (للست سناء) كما يلقبها.

وكان غالى قد قدم شهادته منفصلة عن السنوات التى رافق فيها السادات على الطريق إلى القدس إلى كامب ديفيد والتى عرضهما قبل أن نسأله ألم يندم على دورة فى هذا المشوار؟! فى ظل التطورات الحالية وما يتوقعه وماذا يرى من أمر الأمم المتحدة حالياً وهو من عاصر سنوات أخرى من الصراع من خلال خمس سنوات فى البيت الزجاجى كأمين عام للأمم المتحدة؟!

ولم يكن من الممكن أن نتجاهل الكثير من التفاصيل التى حفلت بها شهادته فى (الطريق إلى القدس) نستقرئها ونعيد تحليلها قبل أن نسأل ويجيب مستكملاً سطور الشهادة.

عندما ذهبت إلى قاعة مجلس الشعب فى ٩ نوفمبر (١٩٧٧) جلست مع زملائى ننتظر حضور الرئيس السادات الذى كان متوقعاً أن يلقى خطابا بالغ الأهمية وكان ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية حاضر أو يجلس فى مقدمة القاعة باعتباره. ضيف الشرف وأثناء إلقاء الرئيس الخطاب قال «إنى على استعداد حتى للذهاب إلى آخر نقطة فى العالم سعياً إلى السلام العادل ومن أجل ألا يقتل أو يجرح ابن من أبنائى الضباط والجنود.. بلى إنى على إستعداد حتى للذهاب إلى الكنيست الإسرائيلى لأننا لا نخشى السلام ولأننا أيضاً لا نخشى المجابهة مع إسرائيل.».

وكان الرئيس عرفات أول من انضجر بالتصفيق ولم يكن عرفات ولا زملائى ولا أنا قد فهمنا تداعيات ما قاله الرئيس وفهم معظم كلماته على أنهما مجرد تعبير عن استعداده لبذل أقصى جهد ممكن لتحقيق السلام.

ويعترف د. غالى أنه لم يكن يتوقع قيام السادات بزيارة القدس ولم يعرف بهما الا عندما ذهب للقاء نائب الرئيس وقتهما حسنى مبارك فى قصر العروبة ليبلغه تكليف السادات إياه بكتابة كلمة ليلقيها فى الكنيست..

«قبل ذلك بأيام قليلة عندما كنت أحاول أن أكثر على مكتبى الوزارى وأنظمة كان واحد من الأمريكيين اليهود الذى يمثلون حركة السلام الآن قد جاء يسألنى إذا كنت أستطيع إقناع السادات بأن يبعث تحيه إلى مؤتمر السلام الآن الذى سيعقد فى القدس وقلت لمحدثى لابد أنك لست فى وعيك لا يمكن أن يوافق السادات على شئ كهذا ومع ذلك بعثت بتلكس إلى الرئاسة بشأن هذا الطلب وبعد ثلاث ساعات تلقيت برقية من السادات نصهما.

«أوافق حتم باعداد نص الكلمة» وعلى الرغم من هذه البادره من جانب السادات لم أدرك ما كان يفكر فيه إما الإسرائيليون فقد رأوا فى تلك البادره (أول طيور الربيع) وقد اكتشفت فيما بعد أن يدا قد أزالت تلك الكلمة من الأرشيف والأرجح أن ذلك بسبب قيمتهما التاريخية.

إلى القدس.. كانت البداية!

ثم كانت مفاجاة التعيين كوزير دولة للشئون الخارجية وقائماً بأعمال وزير الخارجية بعد أن قدم إسماعيل فهمى ومحمد رياض استقالتها اعتراضا على مبادرة السادات من حيث المبدأ «ويبدو أنهما كانا يخشيان من عواقبها وكانت الصحف العربية تكتب عبارات مسمومة. كانت تقول ليس هناك مسلم يقبل مصاحبة الرئيس ولذا اختار المسيحى بطرس غالى المتزوج من يهودية.. ولم أتردد لحظة من قبول هذه المهمة، شعرت بأنهما واجبى الوطنى واجتذبنى إليهما أيضاً ما فيهما من تحد غير مألوف».

ويشهد الدكتور بطرس غالى أنه فى طريقه إلى القدس كان يجد السادات هادئاً عند وصوله إلى مطار تل البيت فلم تكن ملامحة تدل بأى شكل على أن هذه اللحظة غير عادية أو أنهما تسبب له أى قدر من الإثارة أو العصبية كما يشهد أن موشية ديان وزير خارجية إسرائيل لم يكن يهتم كثيراً بدور مصر فى القضية الفلسطينية فالفلسطينيون فى نظره هم فقط الموجودون فى الضفة الغربية وغزة ومنظمة التحرير وحدثه عن شعور الفلسطينيين بمرارة فقد الوطن.

كان ديان منغلقاً إزاء كلماتى وقال أنه يريد منى أن أنقل رسالة إلى الرئيس السادات إذا تضمنت كلمته فى الكنيسة أية إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية فذلك لن يجعل من السهل سيادة الجو الجديد من المصالحة الذى نريد تشجيعه وقال أنه إذا حدثت إشارة كهذه فسيكون مناحم بيجين مضطراً إلى مهاجمة منظمة التحرير.

«وعندما وجدت نفسى وحيداً فى الغرفة بفندق الملك داوود بالقدس.. وعاد إلى ذاكرتى موقفى وأنا صبى صغير أراقب أمى (حوض) وهى تعد حقيبتها للحج من القاهرة إلى القدس وهى رحلة تعتبر بالنسبة للقبطى من أهمية الحج إلى مكة بالنسبة إلى المسلم.

تطلعت طويلاً إلى القدس العربية (من النافذة) وشعرت برهبة اللحظة لكنى شعرت أيضاً بالخوف بسبب الخطوة الجسورة التى قمنا بهما تونا كانت خطوة بالغة الأهمية ولكنها أيضاً محفوفة بالمخاطر على طريق طويل ومجهول.. القدس.. القدس العربية.. القدس المحتلة.. القدس المغتصبة وفى الفجر ذهبنا إلى المسجد الأقصى حيث صلى الرئيس ومرافقوه.. ولم أستطع أن أبعد التفكير فى الملك عبد الله بن حسين ملك الأردن الذى قتله أحد الفلسطينيين عام ١٩٥١ أثناء دخوله المسجد الأقصى وكانت تهمته هى التعاون مع إسرائيل والرئيس السادات يغامر بالتعرض لنفس المصير.

حوار مع ديان

ويحكى د. غالى كيف أنه فى أثناء زيارة القدس وفى أثناء ركوبه سيارة موشيه ديان فى الطريق للمطار للعودة حاول أن يقنعه أن الدبلوماسية المصرية تهدف فى تسوية ثنائية تقتصر على مصر وإسرائيل وكيف أن ديان أجاب ساخراً لا كيف تتمكنون من التفاوض باسم الفلسطينيون والسوريين والأردنيين إذا كانوا يرفضون مبدأ التفاوض؟ أجبت بأن مهمة مصر هى إقناع الأطراف العربية بضرورة التفاوض وبأن التفاوض يمكن أن يفضى إلى نتائج إيجابية وقلت إن إسرائيل إذا كانت تريد حقا أن تعيش فى أمن وسلام فهى تستطيع أن تشارك فى تلك العملية عن طريق اتخاذ مواقف تبين أن المفاوضات يمكن أن تنجح لم يقتنع ديان وعند ذلك استخدمت حجة أخرى طرأت لى فى تلك اللحظة قلت إنه قد يكون فى الوسع إتمام الإنسحاب الإسرائيلى من غزة قبل بقية الأراضى الفلسطينية المحتلة وأن لمصر مسئولية خاصة إزاء قطاع غزة الذى تولت إدارة من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٧ فإذا استعادت مصر إدارة غزة فإنهما يمكن أن تساعد الفلسطينيين هناك على إنشاء دولة مستقلة يمكن أن تساعد الفلسطينيين هناك على إنشاء دولة مستقلة يمكن أن توجى بالثقة فى صدق نوايا إسرائيل وتشجيع الأطراف العربية على التفاوض معهما ورفض ديان الفكرة قائلاً إن قطاع غزة لا تتوافر له الموارد الاقتصادية والمالية الكافية للوجود كدولة مستقلة وتحدثنا أيضاً عن القدس.

ورأيت مرة أخرى الهمزة الواسعة التى تفسل بين موقفينا.

وأيا كانت مشاعرى نحو شخصية ديان فقد كان حديثه صريحاً وحاسماً وواضحا وكان أسلوبه يتناقض تماماً مع أسلوب وايزمان الذى يحاول التغلب على العقبات عن طريق الحرارةالشخصيةوالتفاؤل الفياض».

ثم يشهد غالى على الاستقبال الحاشد الذى وجدوه عند عودتهم مع السادات من القدس وكأن الشعب كله قد خرج لاستقباله مهللين للسلام الذى يسجل كل المشاكل ونظر إلى د. مصطفى خليل وسألنى هل تعتقد إنهم سيعيدون إلينا القدس بعد كل تلك الإنشاءات قلت حتى إذا صح ذلك فإنه يمكن التوصل لحل وسط شبيه بالصيغة المعتمدة للفاتيكان وقلت فى نهاية الطريق الذى يتجاوز القدس سوف نجد القدس».

مؤتمر مينا هاوس

ويسجل د. بطرس غالى بعد ذلك شهادة عيان على لقطة أخرى من إحدى مراحل الصراع التى عاصرها وشارك فى تسطير أحداثهما ومجرياتهما وذلك عندما فوجئ فى نوفمبر عام ١٩٧٧ باعلان السادات فى مجلس الشعب عن دعوته لعقد إجتماع غير رسمى فى القاهرة تمهيداً للعودة إلى جنيف يضم كل الأطراف ويبحث الحل الشامل. وطلب منى الرئيس الشروع فى التحضير للمؤتمر على الفور وقال أنه يجب أن يجتمع يوم ٢ ديسمبر بعد ثمانية أيام واقترحت ضم لبنان للاجتماع فوافق على ذلك ووافق على إرسال دعوة إلى الامم المتحدة وكان إشراكها فى رأيى أمراً حتمياً وسألنى الرئيس ماذا جرى لك يا بطرس؟ لماذا تخاف؟!

وجلست ساعات طويلة فى الليل أفكر فى آلاف المشاكل التى يجب أن أحلها فى سبيل عقد المؤتمر وكنت مبتدئاً فى هذا المجال ثم التقيت بالدكتور أحمد صدقى الدجانى من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا على مسألة تمثيل المنطقة (باسم ياسر عرفات) وناقشت معه أكثر من حل يمكن عن طريق التغلب على مسألة تمثيل المنظمة. بسبب رفض إسرائيل التعامل مع أعضائهما...

وقلت ما يهمنى قبل كل شئ هو أن تكون منظمة التحرير ممثلة فى الاجتماع وأن يرتفع علم فلسطين إلى جانب الاعلام الأخرى ولم تليت الصحف العربية خارج مصر أن بدأت تردد أن مصر لم توجه الدعوة إلى منظمة التحرير الفلسطينية وقد استخدمت هذه الرسالة منذ ذلك الحين

كثيراً لا ثبت للفلسطينيين أنهم ضيعوا فرصة الحديث المباشر مع إسرائيل.

وأمام أسئلة الصحفيين حول مؤتمر القاهرة التحضرى وكنا قد اضطررنا بسبب موجة المعارضة الدولية إلى تخفيض مستوى التمثيل وتأجيل موعده قلت أن الأطراف التى قبلت الحضور هى الولايات المتحدة وإسرائيل ومصر.

وسألنى أحد الصحفيين عما إذا كان موقف الرئيس السادات من إسرائيل سيؤدى إلى خروج الجامعة العربية من القاهرة...

وأجبت بالرجوع إلى ميثاق الجامعة والذى تنص مادته العاشرة على إن القاهرة هى مقر الجامعة وكانت السائدة فى الصحافة العربية بأن السادات فإن القضية العربية وإننى صبى الخائن وتلميذه:

ثم كان لقاء القناطر الخيرية بين السادات ووزير الخارجية الأمريكى سايروس فانس بعد قرار السادات بإغلاق قنصلية الاتحاد السوفييتى وبولندا وتشيكوسلوفاكيا الذى أراد به الرد بشدة على كل من أدانوا مبادرته (الذى أبلغ به د. غالى دون علم مسبق به كذلك لم يطلع الرئيس السادات د. غالى على نتائج إجتماعية الثنائية المغلقة مع فانس فى القناطر فى سابقة لم تكن الأولى ولا الاخيره التى استنتج منها غالى أن السادات كان يناور ويقدم الحجج ليس فقط لاعدائه وإنما أيضاً لمعاونيه ومستشاريه ويعترف غالى: وأبلغ فانس بعد ذلك زملاءه بما قيل وراء الأبواب المغلقة أما نحن فكنا كلما سألنا السادات يقول أنه لم يتذكر ولم يعرف إلا فيما بعد أن الأمريكيين اعتبروا ذلك الاجتماع من الاجتماعات المهمة لأن السادات اقنعهم بأنه على استعداد للسير فى طريقة ولو منفرداً.

وبدأ أن قيادة مصر للعالم العربى قد انتهت الآن عندما وقف العالم العربى ضد السادات هل كان السادات يعرف أن ذلك سيحدث عندما ذهب إلى القدس؟!

وأعلن رئيس الوزراء (فى إجتماع المجلس) أن مؤتمر الإسماعيلية الذى سيعقد بين السادات ورئيس الوزراء بيجين سيؤدى إلى الإتفاق على أهم أسس معاهدة السلام.

ووجدت من واجبى من باب الأمانة الفكرية والسياسة أن أعلق فقلت أن محادثات الإسماعيلية ستفرض مبدأ الوحدة العربية وتضحى بمصالح الفلسطينيين... ولم يلق ما قلته قبولاً وكنت على وشك طلب الكلمة مرة أخرى عندها شعرت بمن يذغدنى ويهمس لى لا داعى لاثارة غضب رئيس الوزراء.

السادات وعزف منفرد

وفى لقطة أخرى من التاريخ شهدها وسجلها وحللها بطرس غالى يشهد كيف دارت جلسة محادثات مكثفة فى الاسماعيلية بين السادات وبيجين وعندما خرج منها سعيداً مستريحاً كان هذه مثار قلق لغالى الذى تساءل ماذا عساه يكون مصدر سرور؟ ليكتشف أن السر كان فى موافقة السادات على تشكيل لجنتين على المستوى الثنائى عسكرية لوزيرى الدفاع رياسية لوزيرى الخارجية وتعقدان فى القدس وخشية أن يكون عرض إسرائيل من المحادثات الثانية عقد صلح منفرد مع مصر مما يحول دون الحديث عن حقوق الفلسطينيين ويؤدى لتفكك المعسكر العربى عليه ضغط غالى ومعه لعصابة الخارجية لتحول اللجنة السياسية إلى الربط بين اللجنتين وبين مؤتمر القاهرة التحضيرى لابقاء العملية كلها تحت نسق مؤتمر جنيف الشامل وكان الفشل بسببٍ رفض العرب مبادرة السادات ولضغط إسرائيل لجعله منفرداً مع مصر يستبعد الفلسطينيين فيما وصفه د. غالى بأية تحالف موضوعى غريب بين الرافضين العرب والمتشددين الإسرائيليين وانتهى ذلك الاجتماع الذى شرح فيه بيجن مشروعه للحكم الذاتى الفلسطينى وأصر على بقاء المستوطنات الإسرائيلية في سيناء تحت إدارتهم ورد فيه السادات بقوة رافضاً ومصر على إنسحاب إسرائيل حتى حدود ١٩٦٧ وتمكين الفلسطينيين من تقرير المصير. وانتهى بالفشل ورغم ذلك أصر السادات من خلال تحليل موقفه بأنه ليس له صبر على التفاصيل

ويتركها لمساعديه ولكنه قد يتخطاهم، ويغير ما اتفقوا عليه فى آخر لحظة وبأن هدفه الوحيد بدا هو استعادة الأراضى المصرية - سيناء - وهى الأولوية التى يجئ بعدها أى شئ آخر كعنصر ثانوى وأنه قد استنتج (أى السادات) أن مصر لا تستطيع أن تبذل جهداً أساسياً لكسب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى مادامت أرضها محتلة وعلى النقيض كنت على يقين من أنه لا يمكن لأية معاهدة السلام أن تدوم إلا اذا تضمنت تدابير لحقوق الفلسطينيين حدها الأدنى حق تقرير المصير.

كما أظهر إجتماع الإسماعيلية أن هدف إسرائيل هو صلح منفرد مع مصر وابعاد أمريكا والأمم المتحدة قدر الإمكان ولم يلبث بيجين أيضاً أن أدرك أن أسلوب السادات فى التفاوض يتيح لإسرائيل الفرصة لإثارة الخلاف بينه وبين مساعديه ولذا قال بيجن إن السادات وحده هو الراغب فى السلام فى حين أن وزارة الخارجية مازالت تحت تأثير الوزير السابق إسماعيل فهمى الذى فضل الاستقالة على السفر إلى القدس»

ثم كان اجتماع اللجنة السياسية بالقدس والرحلة التى أمر السادات بقطعهما وعودة الوفد المصرى إثر كلمة بيجن الجارحة التى ألقاها فى تلك المناسبة مما أثار غضب السادات ويعترف الدكتور غالى بأن الاستراتيجية العامة لكامب ديفيد لم تكن موجودة أو ظاهرة له فلم يعرف كيف يعد حدود. إبراهيم كامل للمؤتمر وهكذا قرارا تركها لارتجال فى حينها وعندما إجتمع بهما السادات قبل السفر إلى كامب ديفيد تكلم فى العموميات وأن مصر ستسعى لحل شامل ولم تقبل باتفاق سلام منفصل مع إسرائيل وأنه رغم أهمية سيناء فإن صفقة منفردة مع إسرائيل من أجلها بدت غير واردة «ذلك أن مصر زعيمة العالم العربى ونحن لا نستطيع التخلى عن الوحدة العربية لمجرد استعادة أراضينا فى حين تظل الأراضى العربية الأخرى تحت الاحتلال.. إلا أنى لم أكن واثقاً من أن السادات بالرغم من تأكيد أنه المكررة

يشارك هذا الرأى وكانت عصابة الخارجية قلقة من أن استراتيجية السادات لاستعادة سيناء أولاً بهدف احراز القوة التى تمكنه من استرداد الأراضى العربية فيما بعد لن تنجح.

وفى كامب ديفيد كان واضحاً أن السادات يريد لاجتماعات كامب ديفيد أن تنتهى بوثيقة دولية مهما كان الثمن إذا كان يدرك أنه بدون مثل هذه الوثيقة سوف تبدو رحلته للقدس والمبادرة الدبلوماسية اللاحقة فاشلة وكنت اعتقد أن الانسحاب المتزامن على كل الجبهات ممكن لو أصر السادات على ذلك - وأحياناً بدا وأحياناً بدا السادات) وكأنه يتمنى فشل المفاوضات حتى يتقلب الرأى العام ضد إسرائيل» وجاءت وثيقة المعاهدة أمريكية الإعداد التى هاجمها السادات فى البداية لعدم كفايتها بالنسبة للفسطينيين ولنصهما على عودة سيناء على مراحل وغضب وقرر الرحيل ثم أقنعه كارتر بالعدول والرجوع وحاول د. أسامة الباز النضال وحولاً إلى صيغة تعترف بحقوق الفلسطينيين وتدعم الصيغة الشمولية للوثيقة ولكن كانت الأحكام المتعلقة بسيناء مهينة لمصر والتى على أثرها قدم محمد إبراهيم كامل استقالته من منصب وزير الخارجية ثم كانت مناورة ثانية من السادات وتهديد بالانسحاب ثم عودة «علشان خاطر كارتر» وفى غضون أسبوع عدنا إلى واشنطن لتحويل إطار كامب ديفيد إلى معاهدة السلام وقال كارتر إن إدارته أعدت مشروعاً لمعاهدة سلام مصرية إسرائيلية وقلت لكارتر أن تقصير زمن الانسحاب كان من مطالب مجلس الشعب وبدا من تعليقات كارتر أنه ومثلنا يرى ضرورة ربط معاهدة السلام بالتقدم لصالح الفلسطينين»

وفى يوم الخميس ١٢ أكتوبر ١٩٧٨ بدأت المفاوضات رسمياً وبدأت شهادة أخرى يسجلها د. غالى للتاريخ...

بأن كارتر قد انخدع بوعد بيجين له بشأن المستوطنات وتجميدها طوال المفاوضات وبأنه سلم الأمريكان مذكرة مصرية لما تراه مصر بالنسبة

للضفة الغربية وغزة وعودة اللاجئين وأشراف مراقبين دوليين على انتخابات السلطة الفلسطينية وبعد إصرار مصر ورفض إسرائيل حتى كادت المفاوضات تنتهى بالفشل وصلت قاطرة معاهدة السلام محطتهما الأخيرة التى شارك فى قيادتهما د. بطرس غالى مع د. مصطفى خليل وفى حين شرح د. غالى لمجلس الشعب أن ما يستوقع بعد يومين فى ٢٦ مارس ١٩٧٩. معاهدتان واحدة تنص على الانسحاب من سيناء... والثانية تتناول الحكم الذاتى الفلسطينى فى الضفة وغزة وأنهما مرتبطتان بضمان أمريكا ويواصل غالى شهادته.

وبدأت المعاهدة التى سيجرى توقيعها بمثابة انتصار للدبلوماسية المصرية ولكنى شعرت أنهما ستضرنا فى لاشك فيه أن هذا النصر أمكن تحقيقه بتهميش الفلسطينيين وأضعاف تأثير مصر على مستقبل الضفة الغربية وغزة فمصر ستحصل على السلام ولكن الفلسطينيين لن يحصلوا على حقوقهم.

(وقبل التوقيع بيوم) أعطانا السفير ايلتس نسخة من اتفاقية سايروس فانس وموشى ديانا وبدا من الصياغة أن مصر وحدها قد تتخرق الاتفاق وأن الولايات المتحدة فى هذه الحالة ستقدم معونة عاجلة لإسرائيل.

وفى الصباح فى يوم ٢٦ مارس هرع عمرو موسى ليبلغنى بأن مصطفى خليل أعدا مذكرة يسترضى فيهما على تلك الاتفاقية الإسرائيلية الأمريكية وتوجهت لمقابلة مصطفى خليل ووجدته فى حالة ثورة وكان مصراً على الذهاب للسادات لابلاغه بالمخاطر الكامنة فى هذه الاتفاقية والتى لم نكشفهما إلا قبل ساعات قليلة من توقيع المعاهدة وحاولت تهدئة مصطفى خليل وقلت أن هذه الاتفاقية فى الحقيقة هى مجرد استطراد لتأكيدات أمريكية سابقة لاسرائيل تعود إلى حرب ٧٣.

وبعث مصطفى خليل إلى فانس مذكرة يقول فيهما إن مصر فى غاية

الأحباط لاكتشافهما أن الولايات المتحدة دخلت فى اتفاقية مع إسرائيل وعندما قام بإبلاغ السادات بالاتفاقية لم يبد السادات كما توقعت أى اهتمام فإن شيئاً لم يكن ليستطيع أن ينقص من سحر الاحتفالات الذى سيجرى خلال ساعات.

وأثناء فعل التوقيع جلست بجوار هنرى كيسنجر الذى كان يتصرف وكأنه العريس فى حفل زفافه وقلت إذا كنا قد فشلنا فى حل المشكلة الفلسطينية فإن المعاهدة الموقعة اليوم لن يكون لها مستقبل(١١).

ولم أكن وحدى الذى يشعر بأن إسرائيل هى الرابحة ومصر هى الخاسرة فى هذه المعاهدة وسألت د. غالى مما إذا كان لديه بعض الشكوك اليوم وبعد كل هذه السنوات وفى ظل التطورات التى يشهدها الصراع العربى الإسرائيلى أو إذا كان غير رأيه فى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فرد من فوره مؤكداً بل مازالت أقول أنهما أكبر انتصار لمصر ولسياسة الرئيس السادات ولم أندم أبداً على دورى فيها ولم أغير رأيى» وعندما سألته النصيحة من واقع خبرته بالصراع العربى المفاوضات والمؤتمرات عما يراه مناسباً اليوم عن عمل فى ظل الواقع المتفجر قال «يجب علينا ونحن العرب. أن نعمل على محورين:

المحور الأول: هو عدم التردد فى استعمال القوة لتحقيق الأهداف الوطنية للشعب الفلسطينى.

المحور الثانى: هو الحوار والتفاوض مع الجانب الإسرائيلى ويجب أن نعمل على هذين المحورين معا بصورة متزامنة ومتوازنة.

وأنا أرى أن عاجلاً أو آجلاً ستضطر الأطراف المعينه بهذه القضية أن يلجأوا إلى التفاوض والحوار وأنه من خلال هذا الحوار سيمكن الوصول إلى السلام وعلى العرب الاستمرار فى إبداء المزيد من الجهد على المستوى

الدولى لتوضيح أبعاد القضية كذلك فإن علينا الاهتمام بالإعلام الدولى وبالتأثير فيه لتوضيح الصورة فيما لاشك فيه إن الإعلام العربى ضعيف على المستوى الدولى ولم ينجح فى إقناع العالم بعدالة القضية الفلسطينية والعربية.

ومن هنا فإن الواجب على الدول العربية الاهتمام بالاعلام الدولى بالاضافة إلى توفير الدعم المادى اللازم أو إنشاء المؤسسات اللازمة للدفاع عن القضايا العربية والاستعانة بالخبرات الدولية فى الاعلام.

لقد لجأنا للخبرات الأجنبية والدولية ولإقامة المصانع ولبناء السد العالى فلماذا لا نستعين بالخبرة الدولية فى مجال الاعلام الذى يعد حالياً المفتاح الحقيقى لكل القضايا وخاصة قضية الصراع العربى الإسرائيلى وعدت أسأل د. بطرس غالى الأمين العام السابق للأمم المتحدة والذى مكث خمس سنوات فى بيت من زجاج عن دور الأمم المتحدة الحاضرة الغائب فى الصراع من بدايته وعما إذا كانت سلبية الأمم المتحدة سواء بيدها أو بيد الفيتو الأمريكى وإشارة إلى أنها قد جاوزت عمرها الافتراضى وصونا بحاجة إلى هيئة دولية جديدة.

وكان د. غالى قد حاول أثناء فترة رئاسته للأمم المتحدة أن يتجاوز أزمة الثقة المذدوجة بين كل من العرب وإسرائيل وبين الأمم المتحدة فإسرائيل وعزلها وإسرائيل تراه إله الحرب الحقيقية والعرب يرونها تابعة لأمريكا بصورة مستقرة وانها لا تطبق القرارات المؤيدة للقضية الفلسطينية.

«أدت أزمة الثقة المزدوجة إلى تعقيد هائل لدورى كأمين عام وحاولت التغلب عليها بمحاولة تحقيق تصالح حقيقى بين الأمم المتحدة وإسرائيل قبل انتخابى وبعده «لقد أسهمت فى كامب ديفيد فى إنجاز معاهدة السلام بين الأمم المتحدة وإسرائيل.

وكانت رسالتى إلى العالم العربى أنى عربى وأن مشكلاتكم هى

مشكلاتي وأن هذه فرحة لن تتكرر على مدى عقود قادمة ساعدوني كي أتمكن من مساعدتكم وقد اتهمني الكتب والنشرات التي تباع في شوارع القاهرة والعواصم العربية بخيانة العالم العربي والاسلامي وبأنني عميل للإمبريالية الأمريكية وقدمني أحد رسوم الكاريكاتير في صورة دراكولا بينما كانت الدوائر السياسية الأمريكية ترى أنني منحاز ضد إسرائيل والولايات المتحدة بصفة عامة.

وفي مواجهة هذا القيد المزدوج وجدت ملاذي في التفسير الصارم لقرارات الأمم المتحدة لتأكيد شرعية قراراتي لتأييد أفعالي. وحاولت كل ما في وسعي لتهدئة الشكوى على كافة الجوانب ولتجنب إثارة الانفعالات لم أهتم على الإطلاق بزياره أي من ليبيا أو لبنان أو الأراضي الخاضعة للاحتلال الإسرائيلي ولم أذهب قط إلى إسرائيل ما ستشاء حضور تأبين اسحق رابين» وقد تعرض د. غالي كأمين عام للأمم المتحدة للهجوم الشديد عندما تقل عنه تصريحه في مؤتمر صحفي في عام ١٩٩٢ بأن قرار مجلس الأمن وضم ٢٤٢ لعام ١٩٩٢ بأن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الشهير ليس ملزما واحتج العرب بأنه بذلك يقول إن إسرائيل ليست بحاجة إلى الانسحاب من الضفة الغربية وغزة ورغم إصداره بيانا يوضح فيه أنه يقصد أن هذا القرار غير قابل للتنفيذ لأنه لا توجد رسائل تنفيذية لانجازه.

رد المستشار القانوني للأمم المتحدة مما يفيد أنه لا يمكن وصف أي قرار صادر عن مجلس الأمن بأنه غير قابل للتنفيذ ويشهد د. غالي من بيته الزجاجي أن معركته الأولى والأخيرة مع إدارة كلينتون حول قضية عربية إسرائيلية وذلك عندما أدان سياسة إسرائيل بابعاد أكثر من ٥٠٠ فلسطيني من سكان الضفة وغزة إلى جنوب لبنان في ديسمبر ١٩٩٢ وحث جميع الأطراف على تجنب تدهور الموقف وبالفعل تثنى مجلس الأمن بالاجماع وبتأييد من إدارة بوش القرار رقم ٧٩٩ الذي أدان بشدة العمل الاسرائيلي

ويعلن أن إجراءات إسرائيل انتهاك لاتفاقية جنيف وأوفد جيمس بوناه الذى وصفه بأنه غير موضوعى فأوفد الهندى خاريخان الذى بعث بتقرير ذكر أنه لم يستشف بادرة مرونة من الموقف الإسرائيلى وطلبت إدارة كلينتون الجديد من د. غالى ألا يقدم تقريره لمجلس الأمن لكنه رفض وأصر على ذلك مما أخطر رابين للموافقة على الحل الوسط الذى عرفه غالى باعادة مائة من المبعدين مبدئيا وجعل أمريكا تصفه بأنه يصعب التعامل معه وبأنه سعى للمواجهة مع أمريكا التى صدمت برغبته فى تقرير استقلالية الأمم المتحدة ثم كانت مذبحة الحرم الابراهيمى والتى جاء رد فعل د. غالى فيها يصدم الولايات المتحدة مرة أخرى ويجعلهما تغضب عليه.

ويشهد د. غالى أنه قد حاول فى ١٩٧٩ ثم مرة أخرى فى ١٩٩٤ أن يجعل الأمم المتحدة تسهم فى صنع السلام العربى الإسرائيلى فقام بنقل المقر الرئيسى لوكالة الأمم المتحدة لاغاثة اللاجئين (انزوا) من فيينا إلى غزة كما عين منسقاً خاصاً لمساعدات الأمم المتحدة للأراضى المحتلة.

وأسألة ولكن رغم كل ذلك بقى دور الأمم المتحدة فى أفضل حالاته هامشيا لماذا؟

وأجابنى د. غالى بقوله:

السبب فى هذا هو أنه فى كافة مراحل هذا الصراع أراد كل من الجانب الإسرائيلى والأمريكى ابعاد الأمم المتحدة وإن كان يسمح لهما فى بعض الأمور بدور هامشى نلاحظ أنه فى عام ١٩٤٨ عندما لم يكن لأمريكا دور على المستوى الدولى كان الأمم المتحدة دور فعال ولكن عندما زادت أهمية أمريكا فى السياسة الدولية حادت سياستها التقليدية ابعاد الأمم المتحدة والانفراد بالتحكم فى السياسة الدولية ولنا أن نتصور أن الأمم المتحدة رفضت تقديم قوات دولية فى سيناء واضطررنا للجوء إلى قوات متعددة الجنسيات وهى وصمة فى تاريخ الأمم المتحدة وتسحب محاولة

الأبعاد أو الاستبعاد تلك أيضاً على المجموعة الأوروبية وتقوم الولايات بذلك فى إطار العولمة وفى هذا خطر كبير فلو لم يتم استتباب الديمقراطية فى إطار العولمة فإن العولمة ستؤدى إلى القضاء على الديمقراطية الوطنية وديمقراطية الأمم أو الديمقراطية الدولية.

وهل ماذال بإمكان الأمم المتحدة أن تحيا وتؤثر

يجيب غالى «نعم مازلنا بحاجة إلى الأمم المتحدة كجهاز يساعد الدول النامية والقصيرة فى أن تعبر عن أمالهما وآلامهما ولا يوجد جهاز آخر يلعب هذا الدور ولكن المطلوب والمهم أن ندعمها ونصلحها حتى تلعب الدور المنشود ولتكون نواة للديمقراطية الدولية مما يكون له الأثر فى مساعدة سيادة الديمقراطية على المستوى الوطنى.

شهادة مثقف يعرف الغرب جيداً

طارق حجى: ما تفعله إسرائيل يُجبر الفلسطينيين على توسيع دائرة الكفاح

لو كنا نعيش فى يوتوبيا من نوع ما..

وكان صراعنا مع العدو الصهيونى تحسمه قوة الحجة وبلاغة المنطق وتدقيق البحث وفصاحة اللسان وموسوعية المعرفة لاستطاع

الدكتور طارق حجى باقتدار أن يحسم المعركة لصالحنا ولو كانت للثقافة منابر مؤثرة قادرة على تغيير الواقع بالتأثير فى فكر أجياله.

لكان د. **طارق حجى** هو رجلنا:

ورغم أن الثقافة وحدها - للأسف - ليست قادرة على كسب معركتنا فإن لها هنا دور لايستهان به وشهادة المثقف اليوم على تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى فى عالم تحكمه المعرفة والتكنولوجيا ويعتمد الاستعمار الحديث فيه على الحرب الثقافية بدلاً من الحرب العسكرية. تصير لها أهمية خاصة لا تقل عن أهمية شهادة رجل الحرب ورجل المفاوضات فقط لو قرأناها بعناية وبأسلوب يجمع بين نظرة المؤرخ والفيلسوف معاً وهو ما جعل الباحثين

الأكاديمين يقارنونه بريسو ومونتسيكو يبدأ طارق حجى شهادة مثقف موسوعى الإطلاع والفكر - كما قال عنه الراحل كمال الملاخ - على تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى، مستدعيا معرفة مؤسسة على أكثر من ٨٠٠ كتاب، ٣٠٠ دراسة متخصصة بهذه القضية تزخر بهما مكتبته.

المشروع الصهيونى فى عجالة:

يبدأ طارق حجى شهادته بالحديث عن المشروع الصهيونى والذى بدأ فى الحقيقة فى أوائل القرن التاسع عشر وبلغ قمة اكتماله فى سنة ١٨٩٧ فى مؤتمر الصهيونية المعروف برئاسة هيرتزل والذى كان قد سبق ذلك قبل عامين باصداره كتيبة (الدولة اليهودية) وفى اعتقادى أن المشروع الصهيونى مشروع سياسى بحت وإن كل الاستعمالات للدين والتوراة والمشاعر الدينية والماضى فى هذا المشروع هى أدوات سياسية ماهرة من عدد من الرجال كانوا ما بين غير متدين وملحد ولكنهم أدركوا بعمق أنه لا توجد أداة فى أيديهم لانجاح مشروعهم السياسى أفضل من الأداة المستمده من الحلم التوراتى وبالذات من المشروع القديم الموصوف باسهاب فى أسفار العهد القديم التى تحمل اسم صموئيل وأخبار الملوك وأخبار الأيام وهى ستة أسفار تحتوى على مشاهد من الصراع الإسرائيلى الفلسطينى بالاضافة إلى إقامة الدولة الاسرائيلية وباسم إسرائيل (ويهوذا) والخلاصة أن المشروع فى حقيقته سياسى بحت وقد بذلت جهود تخطيطية ومتابعة من أجل تخويل المشروع إلى واقع حظيت بتأييد من قوى دولية عديدة كانت وقتئذ هى الأكثر تأثيراً - وللأسف فقد صحب ذلك إهمال عربى بلغ أحياناً حد النوم والغفلة حتى استيقظ معظم العرب على صورة الحلم الصهيونى وهو يتحول إلى واقع خلال السنوات التى فصلت ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية وقرار التقسيم وحتى بالنسبة لقرار التقسيم فقد كان هناك من يرون أن يقتصر الدور العربى على دعم الفلسطينيين فى كفاحهم المسلح دون الدخول فى

حرب كانت نتيجتهما متوقعة وباختصار مرة أخرى فإن المشروع الصهيونى مشروع سياسى يستعمل الدين ويستمد شعلة توهج من استمرار الصراع والعكس صحيح فإن وضع معقول ومقبول ومؤسس على الشرعية الدولية.

بهذا الصراع يجعل شعلة توهج المشروع تخفت رويداً رويداً وتبدأ عناصر التضارب فى بنية البناء الإسرائيلى تظهر المسطح وهو ما يعرف اليمنيون الإسرائيليون بإصرارهم على عدم الوصول لحل عادل وقائم على الشرعية من ذلك سيكون بداية أن يأخذ المجتمع الإسرائيلى حجمه ولونه الحقيقين ويفقد قوة الدفع الجبارة التى ترجع لتلك الخلطة بين ما هو سياسى وعاطفى

العرب والتحدى الإسرائيلى

وعندما يكون جانب الشهادة الواقف على منصتها مقسماً بين المعرفة والمصداقية من المؤمنين بمقولة الفيلسوف الألمانى كانط «أن النقد أداة بناء وليس أداة هدم» ويعتقد أن «الذى يحب وطنه لا يملك إلا أن ينقد أخطاءه»

وهو صاحب كتاب «نقد العقل العربى» الذى اشاد به النقاد أمثال رجاء النقاش - فإن شهادته لابد أن تتجه إلى الذات العربية أخطائها..

ليس لتعذيب الذات وجلدها وإنما لفتح العيون على ما اقترف من أخطاء جسيمة وأنا الخص الأخطاء العربية الكبرى فى هذا المجال فيما يأتى: نعرف الآن من عشرات الكتب الأجنبية والعربية كم كانت الجيوش العربية سنة ١٩٤٨ مهتزئة وغير منظمة ومفككة بل وهزلية وعليه فإنه من الواجب علينا الآن أن نقول أنه ربما كان من الحكمة أن نسمع صوت وزير الخارجية السعودى فى ذلك الوقت (الملك فيصل بعد ذلك) أو رئيس وزراء مصر الأسبق إسماعيل صدقى وكليهما دعى لجعل الفلسطينيين فى المواجهة أى فى خط الكفاح المسلح وقيام العرب بدور الدعم الدولى والمالى والتسليح لهم بوصف الاستاذ هيكل فى كتابه العروش والجيوش لعقلية حاكم عربى كان من المحاربين الأساسيين فى حرب ١٩٤٨ عندما كان يصعد إلى الطابق العلوى يقول أنه (سيطلع اليهود) أنها صورة مؤسفة ولكنها صحيحة وازيد أن جيلى نشأ على أن الجيوش العربية كانت هى الأكثرية فى حرب ١٩٤٨ وكان الإسرائيليون اقلية وكل المراجع المعاصرة تؤكد أن عدد القوات النظامية

الإسرائيلية كانت أكثر من ضعف مجمل القوات العربية التى شاركت كانت لا تفتقر فقط للتسليح الجيد وإنما للنظام والتدريب فى مهاجمة جيش إسرائيلى كان معظم ضباطة قد شاركوا فى قوات الحلفاء ونالوا من التدريب أحدثه (كان غير راوايزمان قائد السلاح الجوى الإسرائيلى ورئيس إسرائيل بعد ذلك ضابطا برتبة كبيرة فى السلاح الجوى البريطانى المتمركز فى مصر وكان مئات آخرون على شاكلته).

كذلك أرجو ألا يمعينا التمذهب عندما أقول أن اصطياد العرب فى يونية ١٩٦٧ بالشكل الذى يتم ما كان له أن يقعْ وأعرف أصدقاء من الناصريين يوافقوننى عندما تأتى إلى هذه الجزئية إن الأرضية التى اكتسبتهما إسرائيل خلال الأيام من ٥ إلى ١٠ يونية ١٩٦٧ هى التى تجعلها اليوم فى هذا الموقف التفاوضى المتقدم ولولا نتائج تلك الأيام لما أخذ الإسرائيليون هذا الموقف التفاوضى المخالف للقانون والعقل والانسانية وأخيف المناقض للحكمة وبعد النظر.. أننا جميعاً نعلم أن المفاوضات هى استكمال للحروب بشكل آخر ولاشك أننا لو كنا قد تفاوضنا فى مارس ١٩٦٧ لما كان موقفنا التفاوضى كما كان عندما حدث بعد ذلك وكذلك فإننا يجب أن ننفذ أنفسنا لأننا حتى عندما بدأ بعضنا طور المفاوضات فقد كنا متشرذمين كالعادة فالسادات بمفرده فى كامب ديفيد وآخرون بمفردهم فى أوسلو والتشرذم العربى على السواء ويبقى فى اعتقادى موقف العرب من أنور السادات وعدم إيمانهم بقدرته على التفاوض والانجاز من أكبر أخطاء الجانب العربى فى سجل تعامداته مع التحدى الإسرائيلى.

ماذا نعرف عن إسرائيل

من الأبعاد الهامة للغاية فى علاقة العرب بإسرائيل سواء من زاوية التفاوضية ضالة المحصول المعرض للجانب العربى عن إسرائيل وأعنى عن كل جوانب إسرائيل: التراث العبرى والأفكار والأساطير المستمدة من التوراة والتلمود وتاريخ اليهود فى الفترات القديمة مثل فترة يشوع بن نون وفترة القضاة ثم فترة الازدهار والتى تربط بأربع تشخيصات محورية هى النبى التورانى صموئيل والملك شاؤول (طالوت) والنبى الملك داوود بن يس والملك النبى سليمان قم ما تلى ذلك من فترات الانحدار والاسر البابلى (تهدم المعبد الأول مرة (على يد نبوخذ نصر) ثم تلايد الرومان قبل نهاية القرن الأول الميلادى ويعد ذلك تاريخ اليهود فى الشتات (الدياسورا) ولاسيما خلال القرون الأربعة السابقة على القرن العشرين بالاضافة إلى التراث اليهودى وأدبياً المشروع الصهيونى وتفاصيل الحركة الصهيونية خلال نصف قرن ما بين مؤتمر بازل (سنة ١٨٩٧) وقرار التقسيم (سنة ١٩٤٧) ثم مئات المواضيع الحديثة مثل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمالية والعلمية فى إسرائيل أن عود العرب الذين يعرفون عن ذلك الكثير يقدرون بالعشرات يمنى يعرف الجانب الآخر عنا الكثير بل والكثير جداً وأعتقد أن هذه إحدى نقاط الضعف الكبرى لدينا فكيف يتعامل العرب حرباً أو صراعاً أو سلماً مع شعب لا يعرفون عنه إلا القشور وهو شعب لا يمكن فهمه بمعزل عن فهم تاريخه وفهم النصوص الاصليه في أدبياته وأولهما أسفار العهد القديم ولا

سيما تلاعن خروج العبرانيين من مصر وحتى نهاية الاسر البابلى.

ومن أكبر الأخطاء التى يقع فيها الكثيرون فى واقعنا أن يظن أن هنالك كيانا واحداً أسمه أمريكا إذا أن أمريكا فى الواقع هى محصلة مئات وربما آلاف الكيانات والهيئات والمؤسسات والآليات والكليات والجامعات ومراكز البحوث وقد عرف الإسرائيليون ذلك وتعاملوا مع هذا الواقع كمفردات أولاً عن طريق وجود ديالوج مستمر معهما وثانياً عن طريق التأثير المستمر عليهما وذلك بفهم مفردات الحضارة الغربية بوجه عام والعقل الأمريكى بوجه خاص وسجل الإسرائيليين فى هذا المجال حافل بالنجاح بينما سجل العرب شبه فارغ فالعرب أما أن يكلموا أنفسهم وأما إن يكلموا الأمريكيين بلغة مجتمعاتهم التى لا يوجد من لديه فى أمريكا الاستعداد لسماعها ناهيك عن قبولها ومن واقع خبرتى الخاصة إذا أحاضر بمعظم مراكز البحوث ذات التأثير الكبير على عملية صنع القرار بالولايات المتحدة كما أحاضر بعشرات الجامعات الكبرى فى الولايات المتحدة ولاسيما التى توجد بها مراكز البحوث ودراميات الشرق الأوسط واعرف مدى حالة الوجود العربى فى هذه الأماكن وحتى عندما يتواجد بعض العرب فإنهم يكونون من الذين لا يعرفون مكونات الحضارة الغربية بالشكل الذى يسمح لهم بإقامة ديالوج مجد مع الواقع الأمريكى ويؤسفنى أن أقول أنه باستثناء عود من الأشخاص عرفتهم بصفة شخصية مثل الدكتور سعيد النجار والراحل العظيم الدكتور إبراهيم شحاتة فإننى لا أعرف فى العالم العربى أكثر من عشرين أو ثلاثين شخصية تعرف كيف تتحاور بنجاح مع كيانات الواقع الأمريكى بل وتكتمل المأساة عندما نجد أن أكبر كتاب العالم العربى ليس لديهم أدوات هذا الديالوج.

أنصار السلام بين الحلم المنشود والواقع

كنت ولا أزال أؤمن بحتميه الوصول لتسوية سليمة الصراع العربى الإسرائيلى ولكننى من جهة اعتقد أنه أية تسوية مسلمة غير عادية ولا تقوم على مفردات الشرعية الدولية ولا تلبى الحد الأدنى من طموحات الجانب العربى سوف يكون مالها الفشل ويجب على كل عاقل أن يرفضها من البداية كذلك فإن هو فى الأكبر من الوصول لتسوية سليمة هو أن نتفرغ بكل قوانا لبناء داخلى قوى بكل ما تعنيه الكلمة من أبعاد ومعان.

ولكن للأسف الشديد فإن حركة مناصرة السلام فى إسرائيل لم تواصل توسعهما وإنما واصلت انكماشهما وفى نفس الوقت فإن المتغيرات فى الخريطة الديموجرافية الإسرائيلية استغلت لصالح اليمين الإسرائيلى هو ما جعلنا ننتهى إلى وجود حكومة مثل الحكومة الحالية فى إسرائيل والتى تضمم من رئيسهما وزراء من العار وجودهم فى أى حكومة فى العالم مهم أعداء عنهم ورغبتهم العميقة فى التعامل مع الطرف غير الإسرائيلى وفق معطيات تخالف بالكلية المبادئ الانسانية ومقررات الشرعية الدولية ـ لذلك فإننى من منطلق إيمانى العميق بحتمية التسوية السليمة لا أجد مناصاً من دعوة الفلسطينيين لأن يدفعوا الثمن اللازم لتحرير وطنهم أى لقيام دولة فلسطينية مستقلة بنفس الكيفية التى تعامل بموجبها الجزائريون مع المحتل الفرنسى واللبنانيون مع المحتل الإسرائيلى ـ وإن كنت أرفض على كل المستويات الاعتداء المدنيين إلا أن إسرائيل لا تترك أمامنا مجالاً إلا أن تحيد

على الاعتراف بحقوق الآخرين وفقاً لمفردات الشرعية الدولية وفى اعتقادى أنه لو لم تكن هناك وسيلة لتحقيق ذلك إلا جريان نهر من دماء العسكرين الإسرائيليين فليكن الأمر كذلك فإن الذى أوصلنا لذلك هم الذين ذهبوا لصناديق الأقتراع يوم ٦ فبراير ٢٠٠١ واختاروا أرييل شارون رئيساً للوزراء وهو رجل يصلح لحروب القرون الوسطى أكثر مما يصلح لأية مهمة تتسم بالتمدن.

تملك إسرائيل أن تجعلنا على طريق التسوية العادلة والقائمة على مفردات الشرعية الدولية ولكن لا يوجد أى دليل على انها ستفعل ذلك وهو ما يتركنا مع خيار واحد هو حتمية أن يوسع الفلسطينيون دائرة كفاحهم من الشكل الحالى إلى شكل يشبه ما أوصل إليه الجزائريون الأوضاع فى بلادهم ما بين أوائل نوفمبر ١٩٥٤ و ٥ يوليه ١٩٦٢ وأتمنى أن أكون مخطئاً وإن يكون السلام عن طريق جسر آخر أقصر كما كان يتمنى الرئيس السادات وكما يمكن أن يحدث لو واصلت أمريكا وإسرائيل المفاوضات التى تعثرت فى ضيق العام الماضى ولم يسيروا والأمور إلى ما وصلنا إليه أمريكا السلبية التى تقول أنهما لم تعد متحمسة لهذا الأمر وإسرائيل التى إختارت له دموية بدون مكونات عقلية أو انسانية اسمها شارون لرئاسة حكوماتهم . أما الزعم بأن الفلسطينيين هم الذين قلبوا المائدة ببدء الانتفاضة فمقولة خاطئة لانها تنكر على الفلسطينيين حقهم فى رفض الظروف المعيشية البائسة التى استمرت منذ أوسلو دون أن يجدوا إلا الكلمات الكبيرة مع بقاء الحاله المزرية على ما هى عليه منذ سنوات اننا إما أن نصل إلى تسوية سريعة تقوم على مفردات الشرعية الدولية وأما أن تكون إسرائيل قد قررت أن تفسح المجال أمام كيانات عديدة مثل حزب الله للتعامل معهما وهو تعامل لن تقدر إسرائيل على كبح جماحه كما تظن وستكون إسرائيل قد أخرجتنا من السير على طريق تسوية سلمية إلى اليسر على طريق عنف وفوضى بلا حد أو نهاية.

إستحالة التسوية ووجوب الثورة الشاملة

أبو بكر السقاف

من الواضح أن قيام إسرائيل تم داخل السياسة الأمبريالية الموجهة ضد الشعوب العربية، ضد وحدتها وتقدمها وبإسهام نشيط من أمريكا على المستويات وكأنه يمكن أن يجرى خارج مواجهة القوى الإمبريالية إنما هو الخط السياسى الذى انتهجته الحكومات العربية منذ الثلاثينات بل انها تصر منذ ذلك التاريخ على أن بإمكان الدولة الامبريالية أن تقوم بدور لصالح العرب وكانت النهاية المنطقية لهذا الحدث السياسى اتفاقية كامب ديفيد.

ومن هنا فإن حقيقة الصراع الأولى أن الطبقات الحاكمة فى أقطار الوطن العربى سواء كانت مكونة من الوجهاء الأقطاعيين وممثلى العشائر أو البرجوازية الوسيطة أو الصغيرة لا تملك وعياً جذرياً لأفق الصراع كله باعتباره مواجهة تاريخية بين الشعوب العربية والامبريالية العالمية حتى عندما كانت تصرخ بأن القضية ليست قضية حدود بل قضية وجود فهذا الكلام لم يغادر أرض التصور الدينى المحض أو القومى الممزوج بالوعى الدينى للصراع. ولذلك فوجه نظر البعض ليس صراعاً يجرى فى شروط التطور العالمى الراهنة بل يعود إلى أعماق التاريخ ويساعد هذا القول على نفى القضية من العصر إلى الماضى السحيق هذا الاستقلال النسبى

والديناميــة الخاصـة التى تملكهمـا إسرائيل والحركة الصهيونية العالمية يطلقه البعض - حتى تصبح إسرائيل حاكمة للولايات المتحدة وتصبح الصهيونية حركة تمتد جذورها إلى آلاف السنوات ويضفى بذلك على اليهود كأقلية دينية قوة وحيوية فريدة لها ملامح الأسطورة وما أسهل أن ينزلق هذا الوعى الأسطورى السياسية الصهيونية التى تجمع فى مزيج شديد التعقد بين عناصر علمانية وعقلانية ودينية وأسطورية تدمجها فى كل واحد مصلحة البرجوازية الصهيونية التى سخرت كل هذه العناصر لتحقيق مشروعهما وهى برجوازية مندمجة عضوياً فى الكيان الأمبريالى.

وليس مصادفة أن تنجح إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية فى جعل القضية الفلسطينية مشكلة داخلية لكل قطر عربى لاسيما فيما يعرف بدول الطوق فأصبحت حكومات هذه الأقطار معينة بتصفية الحركة العربية الفلسطينية أكثر من إسرائيل نفسها وموقف الأردن وسوريا والعراق وحتى الوصاية التى حاول عبد الناصر فرضها على الفلسطينيين والأزمة التى نشأت عن قبول مشروع روجرز بين منظمة التحرير وحكومة مصر شاهد على ذلك وساعد على ذلك أن المقاومة الفلسطينية انطلقت لأمن داخل فلسطين بل من هذه الدول وقد تنبهت المنظمات الفلسطينية منذ عام ١٩٧٣ إلى هذا المقتل فى تركيبها وإن لم تستطع التخلص منه بصورة نهائية رغم اقتناعها بعد حمامات الدم باستحالة قيام هانوى عربية فى أى دولة من دول الطوق إلا بقوة الشعب المسلح كما حدث لفترة قصيرة فى لبنان وإن كان ضعف الدولة اللبنانية من أسباب هذا النجاح. إن نقل المعركة داخل فلسطين ممكن.

وقد أثبتت ذلك ثورة الحجارة فى هذه الأيام والمهمة الآن حماية هذه الثورة والنجاح فى خلق عمق عربى فى كل قطر لهذه الثورة للوصول إلى قيام أكثر من «هانوى» عربية.

إن القضية الفلسطينية ليست إذن قضية الفلسطينيين وحدهم وإن كانوا رأس الرمح فيها ولكنها قضية كل شعوب الأمة العربية فبدونها لا يمكن تصور وحدة عربية ذات وجه تقدمى متحررة من الهيمنة الإمبريالية قادرة على تحقيق ثورة عربية تبنى النهضة الشاملة.

إن تقدم التنمية على كل شئ هو التزييف المعاصر لقضية الثورة العربية فتصبح التنمية بدلاً للثورة أى للنهضة الحقيقية وكانت فكرة المعركة الحضارية أولى بوادر هذا التيار السائد فى هذه الأيام. إن فكرة المعركة الحضارية كانت ثمرة هزيمة يونيو إنها تمثل هزيمة الوعى والنقل بالتحديد وعى البرجوازية العربية التى تريد تأجيل الصراع إلى ما بعد استكمال أدواته الحضارية وهو ترف لا تسمح له إسرائيل وأمريكا وحادثة المفاعل النووى العراقى وغيرها دليل على ذلك وأصحاب هذا الرأى يناسون أن شعبى الجزائر وفيتنام لم يكونا فى علاقة تكافؤ حضارى البتة مع فرنسا وأمريكا فانتصرت ثوراتهما الثورة الوطنية فى الجزائر وثورة التحرر والتوحيد القومى والاشتراكية فى فيتنام.

إن فكرة المعركة الحضارية وتحييد أمريكا شكلت بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ الملامح الأساسية لموقف البرجوازيات العربية من القضية الفلسطينية ودرة السادات كانت ممثلة لكل هذه البرجوازية وهو ما أثبتته حركة عودة الحكومات العربية إلى مصر أى الأقرار بكامب ديفيد وهى عودة تخدم دول الأطراف النفطيه وتطيل من عمر حقبة النفط التى كانت فى أساس درة السادات وخيانته للثورة الوطنية المصرية وللقضية العربية والهجرة إلى دول النفط من مصر وغيرها من الأقطار العربية من قواها الديناميكية الفاعلة وتم تهميش العمال والفلاحين والمثقفين والبرجوازية الصغيرة وانحدرت القضايا المركزية فى الوعى السائد وحل محلها الانشغال اليومى بنمط استهلاكى كونه وفرضه الاقتصاد التابع فى دول النفط والصحوة الإسلامية

تعبيراً عن أزمة هذا الوعى ومن هنا فإن جعل القضية الفلسطينية قضية كل الشعوب العربية ومن المهام المركزية لحركة التحرر الوطنى العربية واختلاف أدوار شعوب دول الطوق عن أدوار الشعوب العربية الأخرى لا ينفى هذه الحقيقة.

إن الشعوب العربية وبتحديد أكثر ممثلى القوى التى تتناقض مصالحها تناقضاً كاملاً مع الهيمنة الأمبريالية الاقتصادية والسياسية والثقافية هى وحدها المرشح لقيادة حركة التحرر الوطنى العربية والوحدة العربية وتحقيق الاشتراكية وأحزاب الطبقة العاملة هى طليعة الشعوب العربية.

إن أول ما يجب طرحه جانباً عند التفكير فى مستقبل الصراع وطرق حله إنما هى فكرة التسوية فالتسوية مستحيلة بحكم طبيعة الصراع نفسه فالتسليم بالتسوية قبول اللعبة قرارات وقف إطلاق النار التى تأتى دائماً لصالح إسرائيل فهذه الحكومات العربية فى دول الطوق تخشى سقوط (الأنظمة) ولا تبالى بشئ غيرها وأغلبها مجتمعات لم تحقق حركة إندماج وطنى صلب يكون أساساً لوعى قومى إنهما مجتمعات يغلب عليها تداخل وتعايش تركيبات ما قبل الرأسمالية فى مجتمع تسيره الرأسمالية التابعة.

إن الحل العسكرى كما مارسته هذه الأنظمة توج بكامب ديفيد الذى حول نصراً عسكرياً جزئياً إلى هزيمة سياسية كاملة وحرص البرجوازيات العربية على ممارسة الوصاية على الثورة الفلسطينية من ناحية وتصوير الحل العسكرى على يدها باعتباره الطريق الوحيد لتحرير فلسطين من ناحية أخرى حمل منذ البداية كل بذور التناقض مع الأهداف التاريخية لحركة التحرر الوطنى العربية فهذه البرجوازيات ليست قادرة إلا على خيانة هذه الأهداف فهى جزء ملحق بنوايا بالامبريالية العالمية ولا تتناقض مصالحها ومصالح الإمبريالية.

إن البحث فى مشروع تحرير وتوحيد شعوب الأمة العربية مع التسليم بمهادنة شعوب الأمة العربية والأنظمة القائمة فى إقطار الوطن العربى معناه عدم الاستفادة من كل التجارب الدامية لحركة التحرر الوطن العربية ونسيان للمجازر التى تعرض ويتعرض لها شعب فلسطين المناضل على يد الأشقاء والأعداء.

نقل التعبئة من هذا الأفق المظلم إلى رحاب الثورة الشعبية العربية الشاملة وحده الحل وهو حل غير سهل وطويل وبطولات الشعبين الفلسطينى واللبنانى أثبتت أن بالإمكان الحاق الهزيمة بإسرائيل وأمريكا وأثبتت أنه بالإمكان قيام تحالف بين التيارات المختلفة داخل حركة التحرر الوطنى وكانت المقاومة الشعبية العربية ولم تستطيع أن تستمر لتقدم نموذجاً كاملاً بسبب الجذر الذى خيم على الأقطار العربية فبلغ حد (البيات الشتوى).

إن سقوط الأنظمة القائمة لن يتم سريعاً ولابد أن تتنوع أشكال النضال ضدها وهذه الأنظمة أكثر المحددات خطورة فمن خلالها يجرى قهر ووأد حركة الثورة العربية كل يوم فكسر هذا الإطار والتحرر بهذه الأنظمة مقدمة لبداية مرحلة جديدة للثورة العربية والمحددات الأخرى ولاسيما الدولة رغم أهميتها تتبع هذا القيد الأول على حركة التاريخ العربى والثورة العربية.

أن فكرة دولة علمانية فى فلسطين قابلة للتحقيق ولكن فى مسار ثورة شعبية وليس من خلال تسوية تجرى وفق قواعد اللعبة الامبريالية السائدة أنها الوجه الانسانى للثورة العربية والامكان التاريخى الواقعى الوحيد لرفض الأفكار العنصرية وأى قبول بدولة فلسطينية فى الضفتين وغزة كحل نهائى تنازل عن مشروع الثورة العربية أن الصراع صراع حياة أو موت.

إن المشروع الصهيونى لا يملك مستقبلاً إلا باستمرار الهيمنة الأمبريالية ولكن هذه الهيمنة نفسها لا يمكن أن تبقى فهى زائلة مهما طال

عمرها فشعوب الأمة العربية جزء من التاريخ العالمى المعاصر وهو تاريخ الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية مهما تعددت دروب هذا الانتقال ورغم خفوت صوت الرافضين للصهيونية داخل إسرائيل إلا أنه موجود ويعبر عن نفسه أحياناً بتأييد حق الفلسطينيين فى دولة مستقلة وفى الحديث عن اتحاد فيدرالى اشتراكى فى الوطن العربى يكون حل الدولة الصهيونية من مقدماته الضرورية لا يمكن تصور النهضة العربية والتقدم الاجتماعى مقدمة لحل القضية الفلسطينية بل نتيجة لحلها أنه المسار التاريخى الطويل الذى ستنصهر فيه قضية الديمقراطيّة والحرية والتحرر الاجتماعى والوحدة القومية وذلك عندما تكون كل هذه المهام التاريخية الكبرى مناطة بقيادة جديدة لحركة التحرر العربية وعندئذ لا لن يوجد أى تناقض بين السعى للوحدة العربية وتحقيق الاشتراكية والوحدة القومية المنشودة أثبتت البرجوازيات العربية أن مصالحهما الحقيقية فى تحقيق هذه الأهداف الكبرى هم الطبقات المضطهدة فى مجتمعات الدول العربية التابعة وبدون رسوخ هذه الحقيقة فى الوعى العربى المعاصر لن تضع حركة التحرر الوطنى العربية قدمها على طريق الثورة الشعبية ومن هنا ضرورة قيام حركة تنوير ثورية نشيطة تكون جزءاً من هذه الثورة وهذا واجب المشفقين الثوريين فى كل الأقطار العربية وأحزاب الطبقة العاملة وحدها يمكن أن تقود وتنظم الحركة الثورية فى مختلف مستوياتها وعلى الجبهة الفكرية يمكن أن يكون التنوير الثورى بداية الخروج من الأزمة الفكرية الناتجة عن طغيان الوعى الزائف مما فى ذلك كل محاولة للفصل بين حركة التنوير والسياسة أو إلحاق وتوظيف الدراسات العلمية والميدانية لخدمة التسوية.

مؤتمر شرم الشيخ وقمة العقبة

تمر منطقة الشرق الأوسط في الفترة الحالية بمرحلة في غاية الدقة والحساسية فمن ناحية تشهد عملية السلام العديد من التطورات والتي نأمل أن تتمخض عنها نتائج إيجابية لدفع «خطة خارطة الطريق» نحو التنفيذ بعد أن قبلها الجانبان الفلسطيني والإسرائيلي. وعلي صعيد آخر مازالت العراق تعاني من وطأة الإحتلال الأنجلو أمريكي مما يجعل الصورة قاتمة في هذا الجزء العزيز من الوطن العربي وبالتالي ومن هذا المنطلق يرتفع العديد من الأصوات التي تنادي بأهمية التحرك العربي الجاد لمواجهة هذا الواقع الملئ بالكثير من التحديدات من حولنا والأخذ بأسباب العلم والمعرفة التي يتحدث بها العالم اليوم والسعي للتضامن والتكتل الإقتصادي حتي يمكن أن يكون لنا صوت مسموع ومعتد به في عالم اليوم.

خريطة الطريق

خريطة الطريق هي في الأساس مقترح وضعته الإدارة الأمريكية وملخطها هو أن تلقي فصائل الجهاد الفلسطينيه بأسلحتهم مقابل إعلان الدولة الفلسطينية ومواصلة التفاوض بشأن القضايا مثل «قضية عودة اللاجئين، القدس» ولكن هل حقيقي أن الحكومة الإسرائيلية التي تعج

باليمين المتطرف علاوة علي تاريخهم الطويل في المماطلة في التفاوض. يمكنها أن تثبت علي كلمة وتنفذ وعودها.. في الواقع أن هذا الأمر محفوف بالشكوك والريبة. ليس لأننا - نحن العرب - كما يقولون نعتنق فكر المؤامرة بل لأن الإسرائيلين لم يتخلوا يوما عن مكسب حققوه أو مساحة إحتلوها إلا بالقوة وعبر صراعات مسلحة مريرة. ولكن أيضاً لن نسبق الأحداث.. وفي سبيله لدفع مشروع «خارطة الطريق» قام بوش بزيارة إلي الشرق الأوسط لعقد مؤتمرين هما مؤتمر «شرم الشيخ» و «قمة العقبة» في الأردن.

فهل سيُفلح هذا الرئيس الأمريكي والذي مازال آثار دماء العراقيين تقطر من يده أن يضع سلاماً

وهل يستطيع «آريل شارون» صاحب المذابح المعروفة بدءاً من «دير ياسين» و«صبرا وشاتيلا» و«جنوب لبنان» أن يتخلي عن طبيعته العدوانيه ويلبس مسوح الكهان ويصير رجل سلام.

إن آلاف الإسرائيليين خرجوا في مظاهرات عارمة إعتراضاً على ما اعتبروه تنازلات مُهينة من قبل شارون. الذي وفي أثناء جلوسه علي مائدة التفاوض في شرم الشيخ والعقبة. يدفع بجنوده للإعتداء علي الأراضي الفلسطينية. فآخر تقرير إحصائي يقول أن «٢٠٠٠» من الفلسطينيين قُتلوا منذ بدء الإنتفاضة الأخيرة وأن ٤٠٪ منهم من الأطفال.

وفي هذا الصدد نستمع أولاً إلي شهادتين هامتين أولهما من الدكتور/ مصطفي خليل رئيس وزراء مصر السابق فعندما سُئل.

● في ضوء مانراه من تحرك امريكي جاد لدفع تنفيذ خطة خارطة الطريق بعد إعلان إسرائيل الموافقة المشروطة عليها كيف ترون إمكانية دفع فرص السلام بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي ولا سيما أن هناك مخاوف من أن تعمل إسرائيل وبرغم موافقتها عليها علي إفراغ الخطة من

مضمونها؟

ورداً علي هذا السؤال قال الدكتور/ مصطفي خليل في هذا المضمار أريد الإشارة إلي عدة ملاحظات هامة:

اولا: إنه في الوقت الحاضر فإن كافة الدول العربية أكدت مراراً علي إيمانها بالسلام وجعلته خياراً إستراتيجياً لها وكما نعرف فإن كلا من مصر والأردن ترتبط مع إسرائيل بإتفاقيات سلام وكافة الدول العربية أعلنت عن إستعدادها للدخول في علاقات سلام مع إسرائيل في مبادرة الأمير عبدالله ولي عهد السعودية والتي أيدتها قمة بيروت العربية في مارس ٢٠٠٢ أي أن العرب يتبنون سياسة السلام ولا يرغبون في خلق مشاكل عدائية مع إسرائيل.

ثانياً: فإن الشيء الهام أيضاً أنه لأول مرة في تاريخ النزاع العربي الإسرائيلي أعلنت الولايات المتحدة موافقتها علي قيام دولة فلسطينية بحلول عام ٢٠٠٥ وذلك من خلال المبادرة المطروحة من اللجنة الرباعية والتي تُعرف «بخارطة الطريق» نحو السلام!!

ثالثاً: إن الفلسطينيين هم دائماً أصحاب القرار الأول والأخير في كل ما يمسهم ومن هنا فإنني أعتقد أنهم أصحاب الإرادة في إتخاذ القرار الذي يحقق مصالحه ونحن دائماً في مصر نقبل وندعم ما يوافق عليه الفلسطينيون وهم لديهم كفاءات كبيرة.

وإلي هنا تنتهي شهادة دكتور مصطفي والتي كانت علي شكل إجابة علي سؤآل.

وفي الواقع نحن نري أن الدكتور مصطفي لم يُضف شيئاً جديداً علي ماهو معروف ومطروح.. ولكن هل فعلاً «السلام» كإختيار إستراتيجي هو الحل مع الصلف والتعنت الإسرائيلي وهل فعلاً ستنجح خارطة الطريق رغم

تدخل الطرف الأمريكي أم ستصبح خارطة ستكون كسابقاتها من أمثال «واي ريفر» و«أوسلو» و«كامب ديفيد» ويظل العدوان مستمر. وتظل المفاوضات حبر علي ورق.

أما الشهادة الثانية في شأن خارطة الطريق والتي تأتي أيضاً علي شكل إجابة علي سؤال فهي للأستاذ أنيس منصور. والسؤال هو:

● مادامت السياسة أحد المضامين الأدبية فما رأيك في خارطة الطريق؟

قال: أنا أتمني إن ماقاله الرئيس بوش وهو رجل متدين مؤمن.. في حديثه للتليفزيون المصري قال إن بوش عندما يقول كلمة ينفذها ونحن نتمني أن يصدق في كلامه. وأملي أن يصدق ويضغط علي شارون.

وأنا شخصياً لا أري أن شيئاً من ذلك سوف يتحقق لأن الخارطة حقل ألغام، فهم يرفضون عودة الفلسطينيين إلي بلادهم، وإن كانوا في نفس الوقت أعطوا الحق لعودة اليهود العراقيين. وهم يقولون إنهم دولة بلا حدود، وقالوا أيضاً إن الفلسطينيين لم يدعوا فرصة لإضاعة الفرصة إلا إستغلوها وأكبر فرصة هي التي عرضها الرئيس السادات عندما دعاهم أن يجلسوا علي مائدة المفاوضات مع اليهود تحت العلم الفلسطيني، ويعلنوا الدولة فوراً. وكان رد الفعل إتهام السادات بالعمالة. وقالوا إن السادات باع طابا لليهود كما باع حافظ الأسد الجولان.

وقد عادت طابا إلي مصر بالقانون والتحكيم الدولي.

وقال عن خارطة الطريق أيضاً.

قد يحدث إغتيال.. قتل.. إنفجار مما يعقد القضية وأنا لا أعتقد أن أبو مازن سوف يطول عمره في هذا المركز. لأن الفصائل تري أنه هو الذي سوف يسلم القضية لإسرائيل وإذا أبُعد أبو مازن أو إستقال.. فهو عذر

جديد. لاتجد أحداً يتفاوض معهم..

وإلي هنا وإنتهت شهادة الأستاذ/ أنيس منصور.. والتي نعتقد أنها جاءت موضوعيه وواقعيه تستند إلي مبررات تاريخية من واقع ماحدث ونعود مرة أخري إلي خارطة الطريق وقمة شرم الشيخ والعقبة.

فقد أسفرت قمة العقبة التي عقدت في الأردن عن إتفاق الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني علي وقف الإنتفاضة الفلسطينية المسلحة، وتعهد إسرائيل بإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية بحلول عام ٢٠٠٥ ودعا محمود عباس أبو مازن رئيس الوزراء الفلسطيني إلي وقف الإنتفاضة المسلحة. كما دعا في بيان ألقاه بعد إنتهاء القمة إلي مقاومة الإحتلال «بالطرق السلمية».

وأضاف «لايوجد حل عسكري للصراع الفلسطيني - الإسرائيلي وبالمقابل فقد تعهد أرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلي بالبدء فوراً في إزالة المستوطنات «غير المرخص لها»، التي أقامها مستوطنون في الضفة الغربية. وأكد أن إسرائيل تدعم بحزم رؤية الرئيس الأمريكي جورج بوش حول وجود دولتين إسرائيلية وفلسطينية تعيشان بأمن وسلام جنباً إلي جنب. وقال إن إسرائيل تعترف بأهمية اللاصق الجغرافي في الضفة الغربية من أجل دولة فلسطينية قابلة للإستمرار.

بالطبع هذا هو الذي علي «الواجهة» أما ما سيحدث فقد يكون السيناريو المكرر والذي إعتدنا من إسرائيل وصقورها وحمائمها أيضاً من مماطلة ورجوع ونكوص للعهدو والوعود.. أو قد يصدقون هذه المرة وهذا مانقوله نحن العرب في كل مرة.. وهذا ما ستُسفر عنه الأيام القادمة.

ولكن: وبغض النظر عن البيانات والتصريحات التي صدرت أثناء الإعداد للمؤتمرين «شرم الشيخ» و«العقبة» فمن المؤكد أن تنفيذ «خريطة

الطريق» سيُصادف عقبات شديدة وقد ينتهي الأمر إلي الفشل، كما حدث لمبادرات أخري سابقة بسبب التعنت الإسرائيلي، وسياسة إسرائيل في المماطلة والتسويق والخداع، والتشبث بأطماعها التوسعية، وإنكارها لأبسط حقوق الشعب الفلسطيني. كل ذلك في ظل إنحياز أمريكي صارخ لإسرائيل، وضغوط من جانب واشنطن علي العالم العربي لكي يقبل بالسلام الأمريكي - الإسرائيلي في الشرق الأوسط.

وقد لفت الأنظار قبل أيام من قمة شرم الشيخ والعقبة أمران غير عاديين.

الأول: أن الرئيس بوش قال: في جرأة يُحسد عليها. إنه عازم علي تنفيذ «خارطة الطريق» وأنه يستطيع أن يمارس ضغوطاً علي إرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل.

الثاني: أن شارون - مجرم الحرب المعروف إرتدي مسوح رجل السلام. ورفع غصن الزيتون فبعد أن وافقت حكومته علي خريطة الطريق ردّ هو علي منتقديه بعبارات أثارت دهشة الجميع فالرجل الذي تتعلق بيديه دماء آلاف الفلسطينيين. قال للذين إنتقدوا موافقته علي خريطة الطريق. «أعتقد أن السيطرة علي ثلاثة ملايين ونصف المليون فلسطيني. وإبقاءهم تحت الإحتلال أمر سيئ، ولا يمكن أن يستمر إلا مالا نهاية. ثم تساءل شارون. هل تريدون البقاء بشكل دائم في جنين ونابلس ورام الله وبيت لحم إنني لا أعتقد أن هذا أمر صحيح».

فهل يصدق شارون السفاح.. وهل يستطيع بوش الضغط عليه وهو المُحاط بما يُسمونَ «المحافظين الجدد» وما هم إلا صهاينة متحيزين بل ويدينون بالولاء لإسرائيل والحلم الإسرائيلي التوسعي. هذا ما سوف نراه خلال السنوات القادمة.

موقف مُشرف له دلالته

كان الرئيس جورج بوش وموظفوا الإدارة الأميركية يعتقدون أن العرب وصلوا إلي حال من الهزيمة والإحباط إلي درجة من الممكن أن تجعل القادة العرب - الذين طلب الرئيس بوش اللقاء بهم في شرم الشيخ - يوافقون علي كل المطالب التي تريدها واشنطن منهم حتي تكافئهم بتدخل الرئيس بوش شخصياً لإقرار مشروع «خريطة الطريق» للسلام بين الفلسطينيين وإسرائيل.

ولكن الإدارة الأمريكية. التي قادت قمة شرم الشيخ - فوجئت بالموقف السعودي الرافض للطلب الأمريكي بالتهد بإتخاذ مايلزم من خطوات لتطبيع العلاقات مع إسرائيل.

ووصل الرفض السعودي لموضوع «التطبيع» إلي درجة أن ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز رفض حضور اللقاء العربي مع الرئيس الامريكي قبل إزالة فقرة إقترحها وزير الخارجية الأمريكي كولن باول تتعلق بالتطبيع العربي مع إسرائيل من إعلان المبادئ العربي الذي صدر في شرم الشيخ، وهدد بإنسحاب الوفد السعودي من هذه القمة، وبالفعل بدأ اللقاء بين الرئيس بوش والقادة العرب الآخرين من دون حضور ولي العهد السعودي. ثم حضر الأمير عبدالله وانضم بعد نصف ساعة إلي الإجتماع.. ومن هنا تبنت مصر بدعم سعودي رفضاً لهذا الطلب الأمريكي وتم التوصل إلي صيغة يتم فيها التشديد علي دعم السلطة الفلسطينية ومساندة إلتزام الحكومة الفلسطينية. كما حُدد في إعلان المبادئ.

جريدة الحياة

٥ يونيو ٢٠٠٣

خاتمة

لأننا فى معرض الحديث عن قراءات فى أوراق الكاتب الكبير/ محمد حسنين هيكل السياسية. فنرى أن أفضل خاتمة لهذه القراءة. هى إيراد مقتطفات من حوار صحفى أجرى مع الكاتب الكبير وقد أُجرى هذا الحديث معه فى مجلة «العربى» الكويتية العدد «٣٢٦» بتاريخ ١ يناير عام ١٩٨٦م وتعد هذه المقتطفات نقاط كاشفة فى رؤية كاتبنا الكبير للصحافة والعمل الصحفى والثورة وأمور أخرى حتى نحصل على رؤية متبلورة حول كثير من الموضوعات التى نسترشد برؤية كاتبنا الكبير فى هذه الموضوعات وقد أجرى هذا الحوار مع الأستاذ هيكل الأستاذ/ محمود المراغى.

- لا حرية صحفية فى غيبة الوقائع!
- على الصحفى ان يختار اين يقف: قريباً من راس السلطة ام.. من ذيلها
- الخبر هو المعرفة.. والراى هو التوجيه
- برحيل عبد الناصر.. انتهت الثورة.. وبقيت السلطة
- المشاركة فى صنع القرار.. تهمة لا ادفعها. وشرف لا ادعية.

لا يحتاج محمد حسنين هيكل إلى تعريف، فهو الأبرز بين الصحفيين العرب، وهو من أبرز الكتاب الصحفيين في العالم. ولكن.. لأن الحوار يختار جانباً من الشخصية، فإننا نستطيع القول إننا نحاور شاهداً على العصر.

بدأت شهادته من موقع الأحداث الكبرى في الأربعينات وبداية الخمسينات: الحرب الكورية، الثورة الإيرانية التي قادها مصدق، حرب فلسطين، ما صنعته من تفاعلات في القاهرة انتهت إلى الثورة، ونقلت موضع الشاهد ليصبح أكثر التصاقاً بالأحداث. بل.. أكثر اندماجاً في فصولها بحكم قربه من زعيم الثورة جمال عبد الناصر.

لكن..

محمد حسنين هيكل مشاهد غير عادي، كان دائماً في الدائرة السياسية، لكنه رفض الاشتغال فيها، دخل الوزارة ورفض الاستمرار، حاول الكثيرون جذبه إلى مجالات العمل الحزبي والنقابي، لكنه آثر أن يكون بالدرجة الأولى كاتباً صحفياً.. يرى.. ويسمع.. ويقرأ ويكتب ويقول.

من خلال ذلك كله أصبح أحد أعمدة التحديث في الصحافة العربية، وأحد رواد مدرسة يمكن أن نسميها..... «مدرسة صحافة المعلومات».

وهي نفس المدرسة التي يعتقد محاوره - محمود المراغي - أنه ينتمي إليها، مع فارق بسيط.. أنه بينما كان المدخل عند هيكل.. السياسة والحرب. كان مدخل المراغي ومنذ أن بدأ عمله الصحفي عام ١٩٥٧ هو... الاقتصاد والأرقام وعالم المال.

وبينما كان هيكل عازفاً عن أن يلعب السياسة بشكل مباشر، شارك المراغي في قيادة وتأسيس أحد أحزاب المعارضة المصرية في السبعينات، كما شارك منذ الستينيات في العمل النقابي كعضو، ووكيل نقابة للصحفيين المصريين لعدة دورات، وكأمين مالي لاتحاد الصحفيين العرب في دورة واحدة.

واخيراً، فبينما كانت التجربة العريضة لمحمد حسنين هيكل فى بلاط صاحبة الجلالة.. الصحافة اليومية مخبرا ومحررا ورئيساً لتحرير أكبر صحيفة عربية وهى الأهرام.

كانت التجربة الرئيسية للمراغى فى الصحافة الأسبوعية كمخبر ومحرر اقتصادى - ونائب لرئيس تحرير روز اليوسف، مع انعطافة صغيرة بالصحافة اليومية كمدير لتحرير جريدة الوطن الكويتية.

المراغى... ٢٨ عاماً من العمل الصحافى و ٦ كتب فى الاقتصاد والإدارة يحاور محمد حسنين هيكل (٤٠) عاماً من العمل الصحفى و (أكثر من ٣٠ كتاباً.....

وجهاً لوجه.... يبدأ الحديث.

الصحفى والسلطة

المراغى: فلنبدأ حيث تتجه الأنظار إلى محمد حسنين هيكل. صحفى كبير أتيحت له الظروف أن يكون قريباً من السلطة، وكانت معظم التجربة مع عبد الناصر، وهو زعيم من طراز خاص، وكانت السلطة فى عهده أقوى ما تكون السلطة.

والسؤال: هناك وجهتا نظر.. واحدة تقول أن الاقتراب من السلطة ضرورى للصحفى، لأنها مصدر المعلومات، والثانية ترى أن الاقتراب منها يلغى حرية الصحفى، ويؤثر على رأيه. أستاذ هيكل.. على ضوء التجربة.

ماذا تقول؟

يجيب هيكل....

أولاً لا يجب أن نتكلم عن الصحفى بالوصف الشائع الذى يشمل كل العاملين فى المهنة. لابد أن نفرق بين ثلاثة أنواع من الصحفيين....

- مخبر صحفى
- صاحب الرأى وهو المقصود من السؤال.
- ثم الفنيون.

وأيضاً.. عندما نتكلم عن المخبر الصحفى فلا بد أن نتكلم عن ثلاث مهام....

- جمع الأخبار.
- تقديم الأخبار بحيث تصل إلى فهم القارئ وادراكه.
- التعليق على الأخبار.. أى مجال ابداء الرأى والسؤال. ومازال الكلام للأستاذ هيكل. من يملك المعلومات، من هو صانع الخبر؟

بالطبع هو الذى فى موقع السلطة أيا كان من هنا لابد للمخبر

الصحفى أن يكون على علاقة وثيقة بمصادر الأخبار. الصحفى من وجهة نظرى ليس إلا مجموعة مصادر، أنا لا أتكلم عن مخبر يزين الخبر أو يحوره أو يختلقه، لكنى أتحدث عن المخبر الصحفى كما ينبغى أن يكون.

أى المخبر الذى مهمته الرئيسية هى العثور على الخبر الصحيح، هنا.. لابد أن يكون للصحفى علاقة وثيقة بالسلطة. وهى علاقة بين طرفين، أحدهما وهو صاحب القرار، يريد أن يحتفظ بالخبر، ولو أن مصلحته فى أن يصل الخبر إلى الناس بشكل معين.

والطرف الثانى، وهو الصحفى، يريد الوصول إلى الحقيقة، كل الحقيقة، وأن ينشرها كما هى.

أنا أقول ليس هناك صحفى يستطيع أن يبتعد أو يعادى من يحكم أو يصنع القرار.

من تجربتى الخاصة التى هى فى نفس الوقت تجربة الصحافة فى العالم الثالث يمكن القول.. إنه كلما اقترب الصحفى من السلطة اقترب من صنع القرار.

وعندما تكون السلطة وطنية والموضوعات لا خلاف عليها، لا يكون التناقض عميقاً بين الصحفى وصانع القرار.

نعم.. يوجد خلاف لكنه بسيط.

هذا النوع من العلاقة، وهذا النوع من الصحفيين وكُتاب الرأى البارزين، موجودون فى العالم كله: بشكل أو بآخر بجوار من يصنع القرار.

حتى أصحاب الرأى.. لابد أن يكونوا حريصين على اقترابهم من السلطة، إذا أرادوا أن يقدموا رأيهم فى قضية ما. هذا.. إلا إذا كنا نتكلم عن مخبر صحفى فى صحيفة معارضة، وهنا يتأثر عمله بحكم وجوده الحزبى، وبحكم تأثيره بعملية توظيف الواقع من خلال هذا الحزب. فهو.. يهتم

بأخبار معينة، ويهتم باتجاهات معينة.

وبصفة عامة لا يمكن فصل السياسة عن الصحافة، لأن الصحافة هى جزء من العمل السياسى.

الاستاذ هيكل مازال يتحدث..

إن تجربة العالم الثالث بصفة عامة، بل تجربة العالم كله تؤكد على أن الصحافة جزء من الحياة السياسية، وبالتالى إذا كانت هناك تعددية فى الحياة الاجتماعية، سواء كان ذلك عن طريق إعادة توزيع الثروة أو الوصول، لكن.. فى مجتمع يمر بمرحلة نمو معينة، أو لم يكتمل فيه نمو طبقاته، لا نجد فيه تعدد سلطات، بل سلطة واحدة، فى العالم الثالث لا يمكن أن تقول بوجود تعدد السلطات، ومهما تعددت المؤسسات فالسلطة فى النهاية واحدة.. أى لا توجد صحافة حرة.

حتى فى انجلترا.. لا توجد صحافة حرة. لا أحد يقول رأيه فى المطلق.. فكل رأى ينتمى إلى شئ، سواء كان هذا الشئ تنظيماً أو حزباً.

بعد ذلك يعود الأستاذ هيكل إلى الحديث عن الصحفى وعلاقته بالسياسة، فيسأل أو يتساءل....

من الذى كتب إعلان ويلسون بنقاطه الـ ١٤ ٩١٤ أنه والترليبمان. إذن منذ أول القرن وحتى فى المجتمع الأمريكى،حيث الصحافة المتقدمة والمتنوعة والصحفيون الكبار فى مواقع صنع القرار. ولقد وجد «ليبمان» نفسه ليس فقط قريباً من مواقع صنع القرار، بل يكتب للرئيس نقاطه الأربع عشرة ويفاوض فى فيتنام، أو على الأقل يحضر لصلح فيتنام.

المشكلة فى وطننا العربى أننا نملك ألفاظاً كبيرة. نتكلم عن حرية الصحافة وحرية المعلومات وكأننا نتكلم فى المطلق، ذلك أنه عندما يعجز الانسان عن الفعل يعوض هذا العجز باللفظ. ابتعاد الصحفى عن مصدر

صناعة الخبر غير عملى، والمهم هو الا يزيف أو يكون أداة فى يد صانع الخبر.

والحقيقة أنه فى العالم الثالث، حيث نمر بمراحل من التطور السياسى، يكون فيها الخلاف بين المخبر الصحفى وصانع الخبر ليس كبيراً، والتناقض بين الصحفى والسلطة الوطنية ليس حاداً. والصحفى يجد نفسه مشدوداً إلى مجال صنع القرار، وهنا عليه أن يختار أين يقف... هل يقف قريباً من ذيل السلطة أم من رأسها.

سلطتات مختلفتان

المراغى: ليسمح لى الأستاذ هيكل بوقفة قصيرة.

تقول أن التناقض بين الصحفى والسلطة الوطنية ليس كبيراً، ومن هنا فالاقتراب لا يشكل قيداً على الصحفى، ولكن ماذا إذا كانت السلطة غير وطنية، أو غير متوافقة فى الاتجاه مع ما يعتقده الصحفى.

أقول ذلك وعينى على تجربتين خاضهما محمد حسنين هيكل: الأولى.. مع سلطة وطنية تمثلت فى عبد الناصر. والثانية.. مع طراز آخر هو أنور السادات، وفى الفترتين عمل صحفياً وشارك بدرجة أو بأخرى، ولفترة أو أخرى فى اتخاذ الكثير من القرارات الهامة.

هيكل: بالنسبة للنقطة الأولى.. نعم كنت مشاركاً، فعندما تكون فى مجال صنع القرار لا يمكن أن تكون أبكم... صانع القرار الوطنى يتكلم مع كل من حوله، والحصول على الأخبار ليس فقط جلب الخبر، ولكنه أيضاً بالدخول طرفاً فى الحوار.

وعمق هذا الحوار هو الذى يحدد مدى مشاركتك، وكلما كنت مهتماً بالقضايا المطروحة تعمقت درجة المشاركة بالضرورة.

وعندما تقول.. أنى شاركت فى صنع القرار، أقول كما قال سعد زغلول تهمة لا أدفعها، وشرف لا أدعيه.

نعم.. كنت موجوداً.. وكنت سعيداً بذلك.

لكن.. عندما تقول سلطة وطنية وأخرى غير وطنية...

أقول.... عندما تبين لى، أو عندما شعرت بالشك فى نوايا أنور السادات.. اختلفت وابتعدت عنه.

أنا لا أعتبر أن السلطة قد تغيرت فى ١٤ مايو ١٩٧١ لم تتغير السلطة لا فى الشكل.. ولا فى الجوهر، ذلك أنى أفرق بين الثورة.. والسلطة والاتجاه.

انتهت ثورة يولية ١٩٥٢ برحيل عبد الناصر. أى فى تمام الساعة الخامسة وعشر دقائق من الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠... توقفت الثورة، أكره أن أقول هذا، لكنها الظروف.

انتهت الثورة وبقيت السلطة.. فاختلفت عناصرها التى تركها عبد الناصر. لا يجب أن يقول أحد أن هذا قد حدث بأثر رجعى، ولأسباب لا علاقة لها بالاتجاه، وكان ١٤ مايو هو الفيصل. وما يثبت بعد ذلك ليس دليلاً.

فى البداية.. أيد الجميع ١٤ مايو، حتى خالد محيى الدين الذى أسس حزباً معارضاً فيما بعد، أيد ما حدث فى ١٤ مايو، وطبعاً لا أستطيع أن أحكم بالنوايا أو الاتجاهات الخفية.

يكفينى من أنور السادات حتى ٦ أكتوبر. ثم اختلفنا معه بعد ذلك.

بعد فصل القوات قلت إننا نسير إلى الكارثة، وإننا نسير إلى صلح منفرد. كتبت ذلك فى مقالات نشرت بالأهرام، وكانت سبب الانفصال النهائى بيننا.

إذن، شاركت فى صنع القرار مع سلطة وطنية لاشك فيها، وحتى الآن

اعتقد انى مازلت مخبراً نشيطاً.

شاركت مع عبد الناصر وبعده، لأنى كنت اعتقد أن الحرب هدف لا يحتمل أى لعب. كنت اتصور أن الحرب هدف يجمع بين كل الناس، قمت بكتابة أمر القتال للمشير أحمد إسماعيل، كتبت خطبة أنور السادات التى القاها فى مجلس الشعب، اشتركت فى وضع الخطة الاعلامية والسياسية لحرب أكتوبر وموقفنا فى مجلس الأمن.

كان ذلك آخر ما فعلته فى عهد السادات. ثم اختلفت الاتجاهات فاختلفت الطرق. فأصبحت لا أشارك ولا أعبر عنه ولا حتى كمخبر صحفى.

أعلنت خلافى أكثر من مرة. بعد حرب أكتوبر كتبت مجموعة مقالات بعنوان «عند مفترق الطرق» ثم قلت رأيى فى كتاب - الطريق إلى رمضان - وهكذا أعلنت الخلاف بينى وبين السادات.

حرية الرأى وحرية التوجيه

المراغى: نعود إلى الأصل.. الصحفى والسلطة.. إلى أى حد يمكن أن تكون علاقة الصحفى المشتغل بالرأى مع السلطة قيداً عليه؟

هيكل: القيود موجودة داخل كل الناس.. وبالتالى فهى قائمة فى العمل الصحفى أيضاً. ورغم أى صداقة أو ود بين الصحفى والسلطة فالصراع بينهما موجود، والتناقض قائم، وهذا طبيعى، بسبب وجود ضرورات تقتضى فىَ مجال السلطة عدم القول بكل شئ. بينما يريد الصحفى أن يقول الحقيقة، أى يقول كل شئ.

اروى لك تجربتى فى هذا المجال..

لقد ظللت اقاوم فى مصر فكرة تنظيم الصحافة حتى عام ١٩٦٠. وكنت أعتبر التاميم خطوة إلى الوراء. وإن ملكية الدولة أمر غير مستحب،

لذا فقد تم اختيار صيغة أخرى أقرب إلى الصيغة التعاونية. حينذاك صدر قرار تنظيم الصحافة عام ١٩٧٠، وهو ينص على أن نصف العائد للعاملين فى الصحيفة، والنصف الآخر، للإصلاح والتجديد، بينما يحتفظ المالك - الاتحاد الاشتراكى - بالرخصة فقط.

وتقدمت بفكر الصحافة العربية المتحدة، لأوائم بين صيغة الملكية وفكرة الاستقلال. ولم يكن ذلك نكوصاً عما كنت أعتقد.

ملكية الصحافة فى العصر الحديث أمر غير مجد، ليس فى مصر وحدها بل فى العالم كله. جريدة «الأوبزوفر» البريطانية تعبير مباشر عن مصالح صاحبها.

جريدة «التايمز» ظلت حتى عام ١٩٤٠ متمسكة بفكرة مهادنة ألمانيا. وظلت افتتاحيتها إلى ما بعد الحرب تعبر عن ذلك، مخالفة الاتجاه العام ومعبرة عن أصحابها.

فى مصر، كانت معركتى مع الاتحاد الاشتراكى، من أجل تجنب الوضع الآخر، وهو سيطرة الدولة أو التنظيم السياسى الرسمى للدولة، هم يريدون ملكية الصحافة وتنظيمها، وأنا أطالب بالتعاونية كحل وسط بين التأميم والملكية الفردية. وأظن أن البحث عن حل وسط ظل هاجساً لدى الكثيرين، من بعد محاولتنا فى مصر. كانت هناك تجربة «الموند» التعاونية، وجاءت مناقشات اليونسكو التى ثبتت عن طريق آخر غير التأميم وغير الملكية الفردية.

على أى حال ما أريد التأكيد عليه هو أن الرأى يتصل بالملكية. وأن الرأى فى الجريدة أضافة. فالجوهر الحقيقى فى الجريدة هو الخبر.. هو ما جرى.

المخبر رجل يحصل على خبر، وهذا هو صميم الديمقراطية، جوهر

الصحافة هو الخبر، أنت تقول مخبر صحفى، أستطيع أن أعيش إذا قلت لى كل ما يجرى وبدون آراء، لكن كيف أعيش بالآراء وحدها دون أن أعرف ما جرى؟!

أن ما يحدث الآن فى الصحافة هو آراء.. آراء لكن لم يقل أحد ماذا جرى؟ ماذا حدث؟ حتى يمكن التعليق عليه.

حرية الصحافة هى حق الناس فى أن تعرف حقيقة ما جرى، وقد تقدمت هذه القضية فى العالم كله ما عدا العالم المتخلف. هذا العالم لا يمنع الآراء، ولكنه يحجب الأخبار أى يحجب معرفة ما يجرى.

إن كتابة الرأى فى الجريدة يساعد على الحكم على ما يجرى، لكن ما أكون به رأياً فيما يجرى هو حقيقة أن أعرف، لذلك فإن حرية الصحافة متعلقة بمهمة المخبر الدقيق، الذى يقول لقارئه ما يجرى. ولكن مع الأسف: إن النظم حتى التعسفى منها لا تمانع فى إبداء الرأى. لكنها تتحكم فى حجب الأخبار. والرقابة الحقيقية فى العالم كله هى إخفاء الأخبار وليس فى الحذف. لهذا فالحرية فى تصورى هى حرية المعرفة وليست حرية التوجيه.

المراغى: بهذا المقياس أين تضع الصحافة العربية؟

هيكل: كلها آراء: غير مسموح فى العالم العربى كله بتداول المعلومات، أو معرفة ما يجرى، ولكن المسموح هو إبداء الرأى فى كل شئ من المريخ.. حتى أصغر الأشياء والسبب ببساطة.. أن الآراء لا تخيف أحداً، لأنها مرتبطة بمن بيديها. أما الخبر فأخطر ما فيه هو المعرفة. الخبر هو المعرفة - والرأى هو التوجيه.

الثورة.. والثروة.. والصحافة

المراغى: أستاذ هيكل لننتقل من العام إلى الخاص، لأوضاع الصحافة، من النظرية إلى التطبيق، إلى قضايا محددة فى أوضاع الصحافة العربية.. ولنأخذ الثروة، والثورة وتأثيرها على الصحافة خلال ثلث القرن الماضى.

لقد كانت أبرز وقائع هذا الثلث من القرن.. العديد من الثورات التى تميزت على الخريطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وكان من أبرز الملامح أيضاً.. نمو فى الثروة فى العديد من البلدان، وهو نمو مفاجئ، ترك بصماته على الحياة العربية كلها من المحيط إلى الخليج.

فى رأى الأستاذ هيكل أيهما كان أشد تأثيراً على الصحافة العربية الثروة أم الثورة؟

هيكل: الثروة بلا شك كانت أكثر تأثيراً، فالثورة صاحبة مصلحة فى تحريك ناسها، حتى وإن تعسفت أحياناً فى مجال إبداء الرأى، أو حجبت بعض الأخبار، لأن تدفق المعلومات يظل دائماً. فالثورة كما قلت صاحبة مصلحة فى كسب الجماهير. مثال على ذلك، كان جمال عبد الناصر يخطب فى الجماهير بالأخبار، كل خطبته أخبار، لأنه يريد من جماهيره أن تقف معه.

الثروة تريد العكس.. الثروة تريد أن تقف بمفردها، والسبب واضح. فالفرق بين الثورة والثروة كبير. الثورة تريد المشاركة، بينما الثروة تريد الانفراد.

الثورة تبعات ومسؤوليات والثروة غنائم. لهذا تطلب الأولى المشاركة.. وتحاول الثانية الانفراد.

المراغى:.. لكن الصورة تبدو غير ذلك؟

هيكل: الصورة العامة غير ذلك، لكنها واضحة جداً فى مجال إبداء الرأى، فحيث يكون التوجه إلى المجال الانشائى ودون تعرض لجوهر ما يجرى.. حينما يحدث هذا تقل المعلومات، وهذه هى أزمة العالم العربى وعجزه عن الفعل.

الصحافة العربية مليئة بالآراء والوعظ والإرشاد، ولأن أحداً لا يعرف ما يجرى.. انعزلت الجماهير فاتجهت إلى السلبية.

المراغى: فى المنطقة العربية هل نبالغ فيما يسمى بأسرار الدولة؟

هيكل: فى العصر الحديث لا يوجد أسرار. بعد أن أصبح كيندى رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية صرح بقوله الشهير أنه كان يعرف.. عندما أصبح رئيساً لم تضف إليه الرئاسة إلا ٥٪ من المعلومات عن طريق الأجهزة السرية.

جزء من زعامة عبد الناصر كان قائماً على إذاعة كثير مما يسمى بأسرار الدولة. والسؤال هو.. ما هى الأسرار الآن؟ خصوصاً فى ظل الأوضاع الراهنة، والأسطول السادس يحل كل شفرة.

ثم يضرب الأستاذ هيكل المثل بتجربته قائلاً...

أنا عملت صحفياً. ليس عندى إلا ما أقرؤه فى الصحف، واقتربت من السلطة فقرأت كل التقارير السرية لوزارة الخارجية والمخابرات، وأنا الآن بعيد لكنى مازلت متابعاً. والأخطر أن التقارير لا تحوى شيئاً هاماً. وأقول أن هناك مبالغة فيما يسمى بأسرار الدولة، إنه جزء من كهنوت الدولة الضعيفة.

المراغى: أعتقد ان قضية المعلومات التى تواجهها الصحافة العربية هى جزء من قضية أكبر. هناك تخلف عربى عام. وأحد سمات هذا التخلف عدم إدراك أهمية المعلومات، سواء فى الحصول عليها أو تدقيقها، أو فى اتخاذ القرارات على أساسها، أو إطلاع الرأى العام عليها، من

المعلومات لدينا الشخصى هو الأهم، وما يتصل بالأفراد قد يكون أكثر استحواذا على اهتمام الحاكم. الست معى فى أن ما تعانيه الصحافة جزء من مشكلة أكبر وليس مجرد قضية صحفية؟!

هيكل: أتفق فى ذلك، وأقول أنه عندما تكون أكبر أسلحة السلطة أن تخفى عن الناس، فإن منطق الإخفاء يمتد ولا يعرف أين يقف.

لابد أن يكون هناك وعى بأهمية المعلومات، فأنت لا تستطيع أن تتابع شيئاً متابعة حقيقية، إلا إذا وضعته فى إطاره، وهو ما لا يتوافر إلا بمتابعة المعلومات.

أنت لا تستطيع أن تضع تكتيكاً، إلا إذا كانت هناك استراتيجية، وأهمية المعلومات أن الجديد فيها يرتبط بنسق ما قبلها. وتكون صورة متكاملة. فإذا لم أقبلها كنسق تصبح المعلومات شراذم.. وشظايا متناثرة.

صحافتنا العربية.. إلى أين؟!

المراغى:.. على ضوء ذلك كله.. هل نستطيع الإجابة على سؤال يقول.. إلى أين تتجه الصحافة العربية؟!

هيكل: قبل أن نقول ذلك لابد أن نسأل إلى أين تتجه السياسة العربية؟ الصحافة جزء من السياسة، كل مجتمع متحرك، وأزمة العالم العربى هى السياسة ولا أظننى أبالغ حين أقول أنه لن يحدث جديد هام فى الصحافة العربية، ما لم تتغير السياسة العربية، يوجد بها ما ليس موجوداً الآن.

وأقول.. أننى لا يمكن أن أفصل بين الأشياء، فتفترض أن الجامعة تتطور بمفردها.. والقانون أو الاقتصاد يتطور بمفرده، والصحافة تتطور بمفردها، وفى معزل عما حولها، هذا مستحيل.

المراغى: هل يفسر ذلك ما يقال عن أزمة الثقة بين الصحافة والرأى العام؟

هيكل: لأن الصحافة جزء من الحياة السياسية، ولأن الحياة السياسية فى العالم الثالث سلطة.. سلطة احتلال.. أو متعاونة مع الاحتلال.. أو سلطة مجتمع رأسمالى.. فالقارئ العادى يشعر أن الأخبار التى تقدمها الصحافة أقرب لجهة ما، وهذا احساس صادق. فالقارئ يثق بقدر ما يعرف عن طريقك. أنا هنا أتكلم عن الصحافة بشكل عام، لا عن الصحافة الحزبية أو الدينية.

أقول. أن أحداً لا يريد الآراء والتوجيهات.. أو لىّ المسائل.. القارئ يريد أن يعرف أولاً، «ماذا جرى» وقد كانت تجربتى فى ذلك أن القارئ ينتهى من مقالى «بصراحة» وهو يتساءل «ماذا يريد هيكل أن يقول»، وردى أننى لا أريد أن أقول شيئاً، لكننى أريد إحاطة القارئ علماً بما يجرى، وأساعده على الفهم والتحليل، إننى أحترم عقلى وعقله.

مصر والتعدد السياسى

المراغى: يكاد حديثنا يقتصر على قضية أساسية واحدة، هى «الحرية». حرية الصحافة فى مواجهة السلطة ورأس المال. حرية المعلومات.. وحرية إبداء الرأى والتطور التقنى.

أظن أنه قد حان الوقت لنتأمل تجربة محددة، هى تجربة الصحافة العربية المصرية فى الآونة الأخيرة.

لقد تعددت المنابر والأحزاب السياسية وتعددت معها فرص إبداء الرأى، ألا ترى معى أن ذلك يمثل خطوة للأمام ونحن بصدد الحديث عنه؟.. أليس التعدد السياسى على أى حال سنداً لحرية صحفية أكبر؟.

هيكل:.. مصر تسبق ما حولها، تسبق بقية أمتها بسبب طبيعة ظروفها.. والناس.. حتى ما لا تكتبه.. حجم ما هو متداول همساً، أكبر من حجم ما هو منشور. نحن أحسن حالاً من آخرين فى العالم الثالث. لكنى لا أستطيع أن أسلم بحرية الصحافة إلا بمعرفة كامل ما يجرى أو على الأقل أكبر قدر منه.. فى غيبة الوقائع لا حرية صحافة.

المصادر

مؤلفات الأستاذ هيكل

١ ـ الإنفجار ٦٧

٢ ـ ٢٠٠١ عام من الأزمات

٣ ـ كلام فى السياسة

٤ ـ المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ٣ أجزاء

● دوريات صحفية

● آخر ساعة

● المصور

● الوفد

● الجمهورية

● الأخبار

● الأهرام المسائى

الفهرس